Ludwig Andreas von Feuerbach

Das Wesen der Religion

جوهر الدّين

لودفيغ فويرباخ



ترجمة وتعليق د. نبيل فياض

Liberal Library

جوهر الدين

لودفيغ فويرباخ

تقديم وتعليق وترجمة: نبيل فياض

لبنان ـ بيروت/ الحمرا

تلفون: 345683 1 961+/541980 1 961+

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+/9647811005860+

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

دار الرافدين@daralrafidain

Das Wesen der Religion

Ludwig Andreas von Feuerbach

Translated by Nabil Fayad

الطبعة الأولى: يونيو - حزيران، 1000 نسخة (2021)

الدار الليبرالية

Deutschland – Berlin

Schlachthofstrasse 20

+4917663646015 / +963968334411

llliberallabrary@gmail.com

شعارنا

حرية الاختيار تعني اختيار الحرية، فالحرية لا تختار إلا ذاتها.

ISBN 978-9922-634-71-5

9 789922 634715

SCAN ME

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

لودفيغ فويرباخ

جوهر الدين

تقديم وتعليق وترجمة
نبيل فياض

الدار الليبرالية
Liberal Library

www.daralrafidain.com

Homo homini deus est

فويرباخ

Homo Homini deus est عبارة لاتينية تعني أنه يجب أن تكون أنت إلهك الخاص، عليك أن لا تشخّص ضرورتك في ألوهية مجردة.

لماذا نقرأ فويرباخ باللغة العربية؟

قبل أكثر من ثلاثة عقود، خارج سوريا بالطبع، كان لقائي الأول بفويرباخ، الفيلسوف الألماني البارز، لأسباب تتعلّق بالبحث. ومن أجل تكوين مقاربة فكرية لهذا الفيلسوف، كان لا بدّ من قراءة أحد أعماله. وهكذا، عملت على عمله هذا، جوهر *الدين*، لأسباب متعددة: العمل، أولاً، يختصر كثيراً من أطروحات فويرباخ التي عالجها في أعمال أخرى له، كعادته، على نحو مستفيض؛ رغم صغر العمل مقارنة بغيره من أعمال فويرباخ، إلا أنه لا يمكن تصنيفه بين الأعمال العادية، أو الشعبية، كما نلاحظ ذلك عند الفيلسوف والأديب الفرنسي جان ـ بول سارتر، الذي عُرف باختلاف مستويات أعماله، بما فيها تلك الفلسفية [لا يمكن مقارنته هنا بنظيره على الساحة الألمانية، مارتن هايدغر، رغم أن الأخير لم يحظ قط بشهرة الأول وانتشاره]؛ لغة العمل غير معقدة كما هو الحال في أعماله الأخرى التي نقلناها إلى العربية، مثل: جوهر *المسيحية*، *أفكار حول الموت والأزلية*، وغيرهما. وهكذا، قمت بترجمة هذا العمل البسيط العميق في تلك الآونة، لأسباب، كما أشرت، بحثية. لكنني لم أفكر بنشره قط.

عادت فكرة ترجمة أعمال هذا الفيلسوف إلى اللغة العربية عندما

عرض علي ناشر صديق، صاحب الدار التي تنشر اليوم كل أعمال فويرباخ، ترجمة عمله جوهر *المسيحية*. وهذا ما كان. وبالفعل، فقد استخدمت نسخاً للعمل بلغات متعددة من أجل أفضل فهم [ليس الأفضل] لهذا النص الصعب. ومع نجاح العمل أتبعناه بنص آخر، جوهر *الإيمان بحسب مارتن لوثر* [عنوانه الأصلي لا يتضمن كلمة لوثر]، ومن بعده مجموعة كتيبات فلسفية، ثم كتابه الجميل، *أفكار حول الموت والأزلية*. انقطعت لفترة لا باس بها عن فيلسوفنا الألماني، حتى عُرض أن نبدأ بترجمة نصه الضخم، *محاضرات حول* جوهر *الدين*، الذي استغرق وقتاً طويلاً لإنجازه، بسبب الحرص على الوصول إلى الكمال في هذه الترجمة الصعبة. وبعد إرسال *المحاضرات* إلى دار النشر، ارتأينا، أنا والناشر، إكمال المحاضرات بهذا الكتاب الصغير، الذي يمكن اعتباره، ضمن أشياء أخرى، مدخلاً إلى النص السابق.

لماذا فويرباخ ـ لا ؟

بوصفنا ليبراليين، كانت ترجمة فويرباخ وتقديمه إلى القرّاء باللغة العربية نوعاً من الخيانة للضمير الليبرالي؛ كذلك فقبل ثلاثين سنة كانت الساحة مفتوحة فقط، بالنسبة لنا على الأقل، للتيار الوجودي بشخوصه المنتشرين في كلّ الغرب بعد الحرب الثانية، خاصة ألمانيا وفرنسا وإسبانيا بشكل أقل؛ ومع الغوص في الفلسفة ـ الأدب الوجوديين، تم اكتشاف أسلاف الوجودية، مثل نيتشه وكيركغارد. ومع هؤلاء نُفخت الروح في أعمدة الأدب الغربي الأهم في القرن

العشرين، الذي نتلمس فيهم بعض ملامح وجودية: كافكا[1]، مان، بروست، وجويس[2].

لقد سبق لجان ـ بول سارتر أن قدّم عملاً يمكن اعتباره من وجهة نظر حيادية، معادياً للماركسية: *الماركسية والوجودية* [توجد ترجمة عربية للنص قام بها جورج طرابيشي]. وكان الغرب، مقرّ الفكر العالمي، منقسماً بعد الحرب الثانية بين ثقافتين، أو فلسفتين: الماركسية والوجودية. وكان الاستقطاب المعرفي لا سابق له. ورغم الغزوات الماركسية في قلب الغرب الليبرالي، لأنه ليبرالي، إلا أن الغزوات الوجودية في قلب العالم الماركسي كانت نادرة، لأنه شيوعي. لذلك كان ثمة خلط معرفي غير مبرر بين فلسفة ماركس ـ إنغلس، وما قدّمه لينين من نتاج معرفي، وما قدّمه ستالين من نتاج معاد للإنسانية. وهكذا، امتد سوء سمعة ستالين إلى كل من لينين ثم إلى ماركس ـ إنغلس، حتى معلم الاثنين، فويرباخ. ولم يكن من غير العادي أن يشعر أنصار الحريات وحقوق الإنسان والتعددية، حتى في تلك الآونة، بنوع من النفور حيال شخص هو سلف الشيوعية، «دكتاتورية» البروليتاريا.

الوضع *مختلف* تماماً اليوم: لينين ـ ستالين *ليسا* ماركس ـ إنغلس،

(1) قدّمنا، قبل أكثر من ثلاثة عقود، ترجمة لقصة فرانتس كافكا غير الطويلة، *التحول* [ترجمت أحياناً *بالمسخ*]، إضافة لشرح فلسفي ـ لاهوتي لمعاني هذا العمل الفريد. القصة تم تحويلها إلى مسرحية في دمشق، بدعم من السفارات التي يمكن القول إن كافكا ينتمي إليها «روحياً»، أي، تشيكيا، ألمانيا، والنمسا.

(2) رغم ترجمتي لنصين لجيمس جويس، مسرحيته *منفيون* إحدى قصص مجموعته *سكان دوبلن*، التي تحمل عنوان إيفلين، إلا أننا لم ننشر الكثير عن هذا الأديب ـ الفيلسوف الإيرلندي الكبير، باستثناء مقالات اختصاصية حول العلاقة بين جويس وإدغار ألن بو.

والأخيران *ليسا* فويرباخ قطعاً. هذا غير أن فهمنا لليبرالية صار أعمق وأكثر حقيقية وانفتاحاً، بمعنى، أنه حتى لو كان فويرباخ *النقيض* لما أفكّر به أو أعتنقه، فإن من حقّه علي، كباحث، تقديمه بكل حيادية وموضوعية، إذا كنت أثق بصحة أفكاري. لكن فويرباخ يثبت كل يوم، مع كل جملة، مع كل كتاب، أن لا علاقة له بتلك الدكتاتوريات التي احتلت أكثر من نصف العالم، وفقست ديكتاتوريات مسخ في العالم الثالث تحمل عناوين أكثر بريقاً، أتفه محتوى.

فويرباخ هو الأكثر *إنسانية* بين من قرأت من الفلاسفة في الغرب. فويرباخ ثار على اللّه، رفضه، اعتبره مجرّد إسقاط للذاتية البشرية على كينونة خارجية غير بشرية، فقط لأنه يريد أن *يؤلّه* الإنسان، أن يضع الإنسان مكان الإله، ولو أنه خص المسيحية بأهم سهام نقده وأعماله.

لم يكن فويرباخ، كما أعتقد، امتداداً لهيغل، خاصة في الأمور الدينية؛ مع أنه أخذ بعض مقولات هيغل الروحانية وعلمنها. مع ذلك، يظل فويرباخ «زعيم» اليسار الهيغلي، وإن كنت أرى أن فلسفته، إذا ما أخذناها بكليتها، لا يمكن اعتبارها امتداداً ـ كما أشرت وأؤكد ـ لفلسفة هيغل.

أهمية فويرباخ المعرفية:

يصعب أن تصادف فيلسوفاً موسوعياً في تاريخ الفلسفة المعاصرة ـ هل يمكننا هنا تذكّر ديدرو؟ ـ بإنسيكلوبيدية فويرباخ. في جوهر *المسيحية*، على سبيل المثال، نجد أنفسنا أمام لاهوتي ملحد ـ رجل يعرف مفاتيح فهم المسيحية وحل أسرارها الأعمق؛ في جوهر *الإيمان بحسب مارتن لوثر*، يفاجئنا باحث خبير للغاية في الفكر اللوثري الهام، إلى درجة أنك

تجد نفسك هنا أمام مقاربة للوثرية لا علاقة لها بكل ما تعرفه عن صاحب حوارات الطاولة؛ في عمله الذي نتحضّر لترجمته اليوم، *علم أنساب الآلهة* [اسم مؤقت على الأرجح] *Theogonie*، ندرك مدى عمق معرفة فويرباخ بالنتاج المعرفي عند كل من الإغريق والرومان ـ معرفة نتلمسها في كل أعماله تقريباً. وبين الفينة والأخرى، يُظهر فيلسوفنا، من خلال نصوصه ـ شواهده المختارة بدقة شديدة، معرفة مبهرة بالعهد القديم وتاريخ بني إسرائيل، هذا غير أنه، كما يبدو لي، كان قد قرأ كل ما وصل إليه من معارف إسلامية وزرادشتية باللغات الأوروبية التي كان يجيدها. لكن معرفة فويرباخ، بالمقارنة مع المعرفة النيتشوية، تبدو حقيقية دائماً، أصلية دائماً، *وأبعد* ما تكون عن الاستعراض الثقافي.

لا يمكن مقارنة زمننا بزمن فويرباخ ـ لذلك فالإعجاب بموسوعيته المعرفية كان سيبدو أضعافاً مضاعفة إذا ما أخذنا هذه الحقيقية بعين الاعتبار: إن ثورة الاتصالات أتاحت حتى للأفراد العاديين أن يكونوا معرفيين فعلاً، فما بالك برجل هو كتلة معارف متنقلة؟

من ذلك على سبيل المثال، حديث فويرباخ المتواتر عن علم الإنسان ـ *الأنثروبولوجيا*، الذي لم تتعرف إليه أو تعترف به جامعات الشرق عموماً حتى يومنا هذا. من هنا، فقد أراد فويرباخ استبدال اللاهوت، ضمن خطته لعلمنة كل شيء، إلى أنثروبولوجيا: رغبة تتناثر حيثما كان من أعماله الكثيرة. وهكذا، يضيع واحدنا أحياناً فيما إذا كان فويرباخ لاهوتياً ملحداً، أنثروبولوجياً، باحثاً في معارف الإغريق ـ الرومان، فيلسوفاً، عالم نباتات وحيوانات وجيولوجيا! ربما تكون الموسوعية هي المظلة التي استظلت بها كل المعارف السابقة.

يمتلك فويرباخ أسلوباً لغوياً ربما يبدو أحياناً لغير المختص أو غير المعتاد على هذا الأسلوب اللغوي صعباً إلى حد ما. لكن الحقيقة أن التعود *معلول* الحب، فما إن تحب نمطاً في التعبير حتى تجد نفسك وقد دخلت في طور التعود عليه، الذي يحيل كل الصعوبات إلى معضلات قابلة للحل.

لكن، بالمقابل: ألا توجد مثالب فكرية على الإطلاق عند قديس الإلحاد الموسوعي؟ مثل أي فيلسوف آخر، عُرِّضَ فيورباخ، خاصة مع الامتداد الأخير للفويرباخية مقابل تراجع [نكسة؟] الماركسية ـ الإنغلسية، لسهام نقد ليست أقل من جارحة، خاصة من مسيحيين متعصبين أقرب إلى الأمية، بسبب كتابه الأشهر، جوهر *المسيحية*. ولاحقاً سنقدّم عينة مختارة من رد مسيحي «أكاديمي» على بعض مقولات فويرباخ ـ مع ذلك، نكرّر، هل كان هذا الفيلسوف هو «الحق» المطلق، مقابل زيف أعدائه الأيديولوجيين *المطلق*؟ لا! ورغم الاعتراف الذي لا يُدحض بموسوعية المعارف الفويرباخية، فإننا سنشير هنا إلى صفة سلبية في مقولات الفيلسوف، ضمن سلبيات أخرى غيرها: *التكرار*. فرغم ثقافة الرجل المذهلة، نجده يدور حول أفكار تبدو لنا أحياناً وكأنها أقرب ما تكون إلى ***Idée fixe*** [هاجس أو فكرة مسيطرة]، لا يستطيع الخروج منها، لأنه، بذلك، يخرج من ذاته. من تلك الأفكار ـ الهواجس: الطبيعة بكل جوانبها؛ الإله كإسقاط للذاتية البشرية على كينونة خارجية؛ التجريد، بمعنى أن يقوم المرء بعملية ينقل فيها مفهوماً أو غرضاً من حالة عينية ـ محسوسة، إلى حالة تجريدية ـ عقلية؛ المخيلة، التي نجدها خلف كل عوامل التحويل الواقعي إلى ميتافيزيقي. لكن على ما يبدو أن الراحة المادية التي أتاحتها له زوجته،

جعلت حياته مكرّسة بالكامل للعمل البحثي ومخرجاته الكتابية. وهكذا، كان فيلسوفاً غزير الإنتاج؛ وغزارة الإنتاج توقع، حتماً، في التكرار، بوعي أو دون وعي، إرادياً أم اعتباطياً. الإنتاج الغزير يحمل السمتين اللتين لا يمكن إنكار تناقضهما: ترسيخ الفكرة والتكرار.

هل نحن بحاجة إلى فويرباخ باللغة العربية، ولماذا؟

دون مبالغة، كان فيلسوفنا أستاذاً مباشراً أو غير مباشر لمجموعة من الفلاسفة وعلماء النفس واللاهوتيين النقديين والأنثروبولوجيين، أبرزهم، ماركس ـ إنغلس، نيتشه، وفرويد. وفي مقالة مترجمة لاحقة، سنجد نوعاً من الإشارات المختصرة إلى علاقة فويرباخ بهؤلاء.

لقد سبق وتعرّفت اللغة العربية إلى هؤلاء، ماركس ـ إنغلس، نيتشه، وفرويد، على يد أنصار كل طرف؛ لكنَّ أحداً لم يقرّ ـ إلا ما ندر ـ بفضل فويرباخ عليهم؛ بل لم يتعرف على كتابات فويرباخ الكثيرة الهامة، ليتمكن بذلك من معرفة أثر فيلسوفنا على ما جاء بعده من مدارس. من هنا، بغض النظر عن ضرورة إعادة الاعتبار لهذا الموسوعي الهام، فإن تقديم أعماله، بحد ذاته، مسألة معرفية *بلا منازع*. ومن أجل إحاطة قارئ العربية ـ ما أمكن ـ بأهم نتاجات من كانوا ثورات ثقافية ـ بشرية في ذواتهم، كان لا بد من ترجمة ما يمكننا ترجمته من أعمال هذا الفيلسوف.

يصعب إنكار أن الماركسية ـ الإنغلسية اجتاحت كثيراً من أقطار العالم، خاصة في شرق أوروبا، الصين، كوريا، فيتنام وغيرها في يوم من الأيام. ومع أن مثالب الشيوعية لا تنتمي إلى بحثنا هنا، فإن التعرّف على أستاذ ماركس ـ إنغلس يبدو هاماً اليوم، خاصة وأن ما يطرحه فويرباخ،

رغم قدمه، رغم أنه جاء قبل تلميذيه اللذين أسسا للشيوعية، يبدو أقرب في إنسانيته ومحبته للبشر واحترامه للخصوصيات الثقافية وتعامله الحيادي إلى واقعنا اليوم مما هي عليه الماركسية المحتضرة.

في العالم الناطق بالعربية عموماً، الذي يدين بالإسلام عموماً، يبدو أن الإنسان قد أضحى بعيداً، لأمور لسنا في وارد مناقشتها في هذه العجالة، عن الإنسانية بمعناها الحقيقي، الأعمق. وربما يلعب فويرباخ، إذا ما توسع تواصله المعرفي مع المتلقي العربي ـ الإسلامي، أن يساهم إلى حد ما في تخفيف فظاظة الألوهة؛ إلى أنسنة الإله؛ إلى محايثته بعد زمن طويل من التسامي؛ إلى الالتقاء بمقاربة للدين ومخرجاته لا علاقة لها بما اعتدنا عليه من مقاربات.

هل الاقتراب من الإله يبعد عن الإنسان ـ والإنسانية؟ سؤال يُطرح بقوة بعد التجارب الدينية الكثيرة السلبية في نصف القرن الأخير! لا مجال للإنكار أن الإلحاد الشيوعي لم يكن مشرفاً، في أمثلة كثيرة ما تزال عالقة في الذهن لأنها تأتي من زمن قريب، لكن فويرباخ شيء وممارسات الإلحاد الشيوعي شيء آخر، بل ربما أن أحدهما نقيض الآخر. لذلك تبدو المقاربة الفويرباخية لفكرة الإله وتجلياتها الأخرى فرصة غير مسبوقة للدخول إلى عالم فيلسوف رفض الإله، وألّه الإنسان ـ بعكس الشيوعية، التي رفضت الإله وألّهت الفكرة ـ باختصار: سرير بروكست![1]

---

(1) في الميثولوجيا الإغريقية ثمة شخصية اسمها بروكست،: هذا الرجل كان قاطع طريق، وكانت له طريقة غريبة جداً في التعامل مع ضحاياه، حيث كان يستضيف فريسته إلى منزله لتناول العشاء، وبعد انتهاء العشاء يدعوها إلى قضاء الليل على سريره الحديدي الشخصي. ولهذا السرير ميزة فريدة من نوعها وهي أن طوله كان عموماً يلائم طول

قد يقول قائل إن اللغة العربية، التي ما تزال مقيدة بقواعد وأفكار ومصطلحات تعود إلى العصور الوسطى (هل ما نزال نؤمن بالإله القديم لأننا ما نزال نستخدم اللغة القديمة؟)، ربما لا تبدو مطواعة في نقل فلسفة عميقة، دقيقة، ألمانية، إلى الناطقين بها. لكن الواقع ليس كذلك، فهذه اللغة العتيقة الجميلة، قادرة على نقل أهم المعارف الكونية، على اختلاف مشاربها. لكن الأمر ليس سهلاً. ونحن بحاجة هنا إلى بعض العمل على وضع منظومة فلسفية خاصة بالترجمة:

1 ـ تقديم ضبط «ترجمي» لبعض المصطلحات التي لم يُتفق عليها، مثل: كينونة أم كيان؟

2 ـ كسر جمود هذه اللغة عن طريق نحت مصطلحات جديدة غير مألوفة، لكنها تعطي المعنى الأقرب إلى الدقة؛ ولنا في تجربة هايدغر النحت ـ لغوية المثال الأهم.

3 ـ استخدام ما أمكن من مصطلحات غير عربية من أجل إيصال المعنى الأدق للكلمة. على سبيل المثال، في نص فويرباخ هذا وجدنا صعوبة في نقل بعض المصطلحات إلى اللغة العربية: مصطلح يجرّد، بمعنى

جسد النائم كيفما كان، غير أنه في بعض الأحيان لا يتحقق ذلك، ويكون المقياس غير مناسب، حينها يبدأ بروكرست عمله، فيقوم بربط الضحية بإحكام ويشد رجليها إن كانت قصيرة ليوصلها عنوةً إلى حافة السرير حتى تنطبق مع طوله، أما إذا كانت الضحية طويلة على السرير، يقوم بقطع رجليها حتى لا تتجاوز مقياسه ولكي تتطابق تماماً مع طوله!

ظل بروكست على عادته إلى أن لقي حتفه على يد البطل الإغريقي ثيسيوس الذي أخضعه لتلك التجربة بالذات، فوضعه على السرير ذاته، وقطع رقبته لينسجم طول جسمه مع طول سريره، وبهذا يكون ثيسيوس قد خلّص أهل المدينة من هاجس لم يشهدوا له مثيلاً قط.

يضفي صفة تجريدية، النقل من العيني إلى التجريدي، لا بمعنى نزع شيء ما؛ مصطلح *يسقط*، ليس بمعنى أن *يسقط* شيئاً، بل بمعنى أن يقوم بعملية إسقاط لشيء ما على شيء آخر؛ مصطلح يموضع، بمعنى يجعل شيئاً غير موضوعي، موضوعياً.

في اللغة السريانية لدينا سابقة هامة، فاللغة المشرقية هذه أخذت من اللغات الأخرى الكثير؛ كذلك فإن اللغة العربية، لغة القرآن، مليئة بالألفاظ غير العربية، وهو ما قدّمناه تفصيلياً في عملنا المعد ـ المترجم: معجم *الألفاظ الأجنبية في القرآن*. كذلك فإن لغات كثيرة، كالألمانية على سبيل المثال، كانت تعتبر ذاتها حتى مرحلة غير بعيدة، لغة «مقدسة» غير قابلة للتبديل أو التلقي من خارجها؛ لكن الثورة المعلوماتية وتفشي «النحت ـ اللغوي» حيثما كان، أجبرا اللغة الألمانية ولغات كثيرة غيرها على تغيير منهجها الانغلاقي، والانفتاح على اللغات الأخرى، خاصة مع انتهاء ثيمة الفتنشية[1] اللغوية على أبواب العلم.

قليل من العبث، كثير من الجدية:

في التحضير لهذه الترجمة، أُخبِرتُ أن ثمة ترجمة أخرى غير جديدة لهذا العمل بالذات، صادرة ليس حديثاً عن دار نشر عربية. وبنوع من

(1) للفتنشية التي نجدها غير مرة في هذا العمل، معان كثيرة، أبرزها جنسي. فهي تعني جنسياً، كما ورد في احد المراجع، شكلاً من أشكال السلوك الجنسي يرتبط فيه الإشباع بدرجة غير طبيعية بجسم معين أو نشاط معين أو جزء معين من الجسم، إلخ؛ وهو ما تم التعارف على تسميته «بالفتنشية الإيروتيكية».
من معانيها غير الجنسية العامة، عبادة كائن جامد لقواه السحرية المفترضة أو لأنه يُعتبر مسكونًا بروح.

الفضول وربما الاستئناس، طلبت من مخبري إمدادي بنسخة من تلك الترجمة، إن أمكن، كي أقارنها بترجمتي القديمة ـ المتجددة. ولم يكن الأمر تنقصه *الدهشة*. فللوهلة الأولى اعتقدت أن ترجمتي خاطئة، ربما بسبب العمر وقتها وقلة الخبرة، لأن المقارنة بين النصين المترجمين تجعل واحدنا يتساءل: لماذا؟

ترجمة غير ملتزمة على الإطلاق بحرفية ـ ولا روحية ـ نص فويرباخ؛ وإن كنتُ ألام على التزامي الحرفي شبه المطلق في ترجمة فلاسفة مثل نيتشه، هايدغر، أو فويرباخ، إلا أن الحرفية الصعبة التي تحتاج إلى جهد عقلي يصعب على من احترف الغريزة، أفضل بما لا يقارن من نص سهل يضيع المعنى، إن لم يكن يشوهه.

علامات الترقيم ضائعة، الجمل ضائعة، ومن ثم فالنص ضائع. وحين أضيع بوصلة علامات الترقيم، التي يضعها الفلاسفة بحرص شديد، لأن فهم النص دونها أقرب إلى المستحيل، يضيع فهم مقولات الكاتب علي. وفي النص المشار إليه آنفاً، علامات الترقيم، بلغة فويرباخ، *اعتباطية*.

شطب بعض نصوص أو هوامش صعبة لغوياً نوعاً ما، دون ذكر لذلك أو إشارة له. هذا غير أخطاء لاهوتية قاتلة، حين يُشار إلى نصوص مستلّة من العهد القديم، مستشهد بها من قبل فويرباخ ضمن نصه هذا، على أنها واردة في الإنجيل. ـ خطأ *عشوائية* الترجمة.

كما أشرت من قبل، وكما يقول أنصار لاهوت الصيرورة، كل شيء يسير في طريق الكمال، لكن لا شيء كامل في هذا العالم، وبرأي الصيروريين، ولا حتى اللّه. ونحن في هذه الترجمة نحاول أن «نركض»

على درب الكمال، مع أن اعتقادنا راسخ في أن الكمال هو الحالة الوحيدة التي لا وجود لها.

نبيل فياض

دمشق، السادس عشر من تموز/يوليو، 2020

مقالة مترجمة لأكاديمية مسيحية

رداً على فويرباخ

لودفيغ فويرباخ والإله المُخترع: فهم ورد كمسيحيين!

إحدى العقبات التي كثيراً ما يواجهها أولئك الذين ينكرون وجود الله هو كيفية الرد على مليارات الناس عبر التاريخ الذين شعروا باقتناع عميق بوجوده. هناك رد أنثروبولوجي على هذا الاستعلام والذي أصبح شائعًا بشكل متزايد في يومنا هذا: أن الإنسان يخترع الله من ضعفه النفسي. تعود جذور هذا الادعاء إلى بعض من أعظم فلاسفة العصر الحديث. فقد وصف ماركس الدين بأنه «الشمس الوهمية التي تدور حول الإنسان طالما أنه لا يدور حول نفسه»[1]. كانت السمة المميزة لـ «Übermensch» نيتشه[2] هي قدرته على التغلب على الركيزة النفسية للدين ونبذها من أجل الإلهي الحقيقي

(1) Marx, Karl. *The Portable Karl Marx*. Ed. Eugene Kamenka. Harmondsworth, Middlesex, England: Penguin, 1983. Print.

(2) مصطلح «Übermensch» النيتشوي، الذي تمت ترجمته حرفياً بلفظة «overman»، لكنه غالبًا ما يُترجم إلى «superman»، هو أحد أشهر أفكار نيتشه، وكان تمثيله للكينونة الأكثر تطورًا التي تشبه الإنسان والتي يعتقد أن علينا أن نسعى جاهدين لأن نكونها. [راجع كتابنا، *نيتشه والدين*. ـ مترجم].

ـ هو *ذاته*. ثم ذهب فرويد إلى حد القول إن الدين يشبه عصاب الطفولة، ونأمل أن «يتجاوز الجنس البشري في نهاية المطاف هذه المرحلة العصبية، تمامًا مثلما يخرج العديد من الأطفال من عصاباتهم المماثلة»[1].

أفكار هؤلاء الفلاسفة وغيرهم كثير مستوحاة من مفكر أقل شهرة يدعى لودفيغ فيورباخ، الفيلسوف الألماني من القرن التاسع عشر الذي درس تحت إشراف هيغل في جامعة برلين قبل كتابة العديد من الأعمال التي ركزت على قضايا الدين والمسيحية. وغالبًا ما لا يحسب لفويرباخ الفضل في تأثير أفكاره الراديكالية.

لو لم يُعَلمن فويرباخ أفكار هيغل، التي كانت تستند إلى المُثل المسيحية، لما كان الفكر الهيغلي أثار اهتمام المفكرين الملحدين بالطريقة التي أثارهم فيها، ولكان مفكرون مثل ماركس، نيتشه، فرويد *سيفتقرون* إلى العمود الفقري الفلسفي الذي استخدموه لصياغة إيديولوجياتهم، التي أصبحت رائدة ليس فقط في الفلسفة، بل في السياسة، الدين، وعلم النفس أيضًا. بصراحة، دون فيورباخ، كان من غير المحتمل أن تكون بعض الفلسفة الأكثر تكوينية في العصر الحديث قد تطورت بشكل مختلف تمامًا ـ هذا إذا كانت على الإطلاق. لذا، من خلال فهم فويرباخ، يمكننا أن نفهم بشكل أفضل المبررات ضد وجود اللّه المستخدمة اليوم، ومن خلال فهمها، تعلّم كيفية الرد. في النهاية، يمكننا استخدام فويرباخ كوسيلة للتعاطف

(1) Freud, Sigmund. *The Future of an Illusion*. Trans. James Strachey. New York: Norton, 1975. Print.

بشكل أكثر فاعلية مع أولئك الذين يتمسكون بنماذج إلحادية مماثلة، بل حتى أن نتعلم الكثير من رجل تعتبر كلماته بالنسبة للمسيحيين مدانة بشكل غير متوقع.

للبدء بفهم فويرباخ، على المرء أولاً أن يفهم القليل عن هيغل. كان التأثير الأكبر لهيغل على فويرباخ على الأرجح مفهومه عن الـ«Geist»، وهي كلمة ألمانية غالبًا ما تُترجم بمعنى «روح» أو «عقل» في أعمال هيغل. يعتقد هيغل أن التاريخ يسترشد بحركة العقل البطيئة، غير الكاملة، لكن الثابتة، مع تقدمه عبر الزمن حتى يتحقق بشكل كامل. كان «الروح» هو تفسير هيغل للقوة الموجهة خلف هذه العملية. فهو يقول في عمله الشهير، *فينومينولوجيا الروح*: «التاريخ، هو صيرورة واعية متأملة ـ ذاتياً ـ الروح مفرغة في الزمن ـ ».[1] متأصل في هذه الفكرة هو الاعتقاد بأن التاريخ تقدمي على نحو مطلق، أي، إذا كان هناك رسم بياني خطي يقيس مدى معقولية معتقداتنا وأنظمتنا المجتمعية بمرور الوقت، سيكون خطه إيجابيًا (على الرغم من أن الخط لن يكون مستقيماً تمامًا بأي حال من الأحوال، حيث نغوص غالبًا في الانحدار لفترات قصيرة). كان لهذا المفهوم الهيغلي تأثير كبير في الفلسفة بعد ذلك، خاصة بين المفكرين الألمان في القرن التاسع عشر. لقد كان الأساس الذي تنبأ بناءً عليه *ماركس* أن المجتمع سوف يزدهر بمجرد أن يحقق الشيوعية المثالية، السبب الذي حدا بنيتشه إلى الزعم أنه عندما يتقدم الإنسان

---

(1) Hegel, Georg Wilhelm Friedrich. *Phenomenology of Spirit*. Trans. Arnold V. Miller and J. N. Findlay. Oxford: Clarendon, 1977. Print.

أخيرًا إلى ما هو أبعد من حاجته إلى اللّه، فسوف يصل إلى «تاريخ أعلى من أي تاريخ حتى الآن»[1]، وهو أساس تأكيد *فرويد* المماثل بأن الحضارة بحاجة ماسة إلى اتخاذ «خطوة إلى الأمام» من «الوهم الديني» إلى «الواقع».[2]

لكن فيورباخ هو الذي جسّر الهوة بين هيغل وبين هؤلاء العمالقة في الفلسفة. أخذ فيورباخ الـ«Geist» وفرضها على الدين بطريقة لم يفعلها هيغل قط، مدعيا أن الدين ـ أي المسيحية ـ كان مرحلة من التاريخ يجب أن تمر بها البشرية من أجل إدراك أن الدين هو في الواقع مهزلة وأن الإله الحقيقي يكمن في الفرد. لم يكن هذا تصريحًا رائدًا في حد ذاته فحسب، بل كان تفسير فيورباخ لكيفية حدوث مثل هذه الظاهرة جذريًا أيضًا: يؤدي ضعف العقل لدى الإنسان إلى عدم القدرة على الاعتراف بسلطته ومن ثم فهو *يسقط* شخصيته على كائن خارجي يسميه «اللّه». بالإضافة إلى كونه أساسًا للعديد من وجهات نظر ماركس حول الدين، يمكن القول أيضًا إنه يمكن البرهنة على أن هذا الجدل كان النبع الأساس لمدرسة التحليل النفسي، والتي لن تنشأ إلا بعد عدة عقود.

لقد فرض فويرباخ أيضًا التجريبية على الدين بطريقة لم يسبق لها مثيل. ففي حين أن مفكري عصر التنوير مثل سبينوزا وهيوم تفحصوا

---

(1) Nietzsche, Friedrich Wilhelm. *The Gay Science.* Mineola, NY: Dover Publications, 2006. Print.

(2) Freud, Sigmund. *The Future of an Illusion.* Trans. James Strachey. New York: Norton, 1975. Print

المسيحية في المقام الأول من خلال النقدية النصية، في محاولة لتشويه سمعة نظام الاعتقاد من خلال الإشارة إلى عيوبه المفترضة، قام فويرباخ بمهمة تقديم تفسير تجريبي لسبب ظهور هذا «الدين الزائف» في المقام الأول، مؤسساً حجته على التحليل الأنثروبولوجي والنفسي[1]. وقد استهزأ بمفهوم الإيمان ذاته، معتقدًا أنه عدو للعقل والتجريبية: «أنا أختلف أيضًا عن هؤلاء الفلاسفة الذين يقلعون أعينهم حتى يروا أفضل؛ في رأيي، أنا أحتاج إلى الإحساس، خاصة البصر؛ لقد وجدتُ أفكاري حول المواد التي يمكن الوصول إليها فقط من خلال نشاط الحواس»[2]. هذه الضرورة للحواس عند فويرباخ هي المفتاح لفهم أفكاره، حيث أنه سلّم جدلاً أن الإنسان لا يمكن ملاحظته إلا من خلال استخدام الحواس والله لا يستطيع ذلك.

بما أن العمل الأكثر شهرة والأكثر تأثيراً الذي كتبه فيورباخ كان كتابه جوهر *المسيحية*،[3] فإنه من هذا المصدر سنفحص أفكاره. في هذا الكتاب، يدعي فويرباخ أن هناك ثلاث صفات تشكل طبيعة الإنسان: «أن تريد، أن تحب، أن تفكّر، هي أعلى القدرات، هي الطبيعة المطلقة، للإنسان كإنسان، وأساس الوجود». ويوضح أن هذه القدرات، بالإضافة إلى وعي الإنسان، تجعله يتفوق على جميع الكائنات الحية الأخرى. وبما أنه من الواضح أن

---

(1) لم يكن علم النفس بعد قد أضحى نظامًا رسميًا عندما كان فيورباخ يكتب أعماله الرئيسة، لكن عرض حججه بأثر رجعي يظهر النغمات التحتية الواضحة لما نسميه اليوم علم النفس.

(2) Feuerbach, Ludwig. *The Essence of Christianity*. Trans. George Eliot. New York: Barnes & Noble, 2004. Print.

(3) راجع ترجمتنا للعمل، دار الرافدين، بيروت. [مترجم].

اللّه يمتلك هذه الصفات الفريدة أيضًا، بحيث يبدو أن طبيعة اللّه وطبيعة الإنسان تعكس الواحدة منها الأخرى، وبصرف النظر عن جميع الكائنات الحية الأخرى، فإن المعضلة المتضمنة هي: هل خلق اللّه الإنسان على صورته أو هل خلق الإنسان اللّه على صورته؟[1] بما أن فيورباخ ينكر مصداقية أي ادعاء والذي لا يمكنه أن يرتكز على تجربة حسية ويعتقد أن اللّه لا يمكن ملاحظته بهذه الطريقة، فإنه يصل إلى الاستنتاج الأخير. [أن الإنسان خلق اللّه على صورته ـ مترجم][2]. باستخدام «الشعور» ليعني الطريقة التي يستشعر بها الإنسان ألوهيته الخاصة، يصف فويرباخ العملية التي ينكر المرء من خلالها هذا الشعور ويسقطه بدلاً من ذلك على غرض خارجي (اللّه):

أنت ببساطة جبان أو ضيق الأفق للغاية بحيث لا تعترف بالكلام عما تؤكده مشاعرك ضمنيًا... أنت مرعوب أمام الإلحاد الديني لقلبك. من هذا الخوف أنت تدمر وحدة شعورك مع ذاته، في تخيلك لنفسك كينونة موضوعية متميزة عن شعورك... الشعور هو قوتك الذاتية الداخلية،

---

(1) Lecture XX, see *Lectures on the Essence of Religion*. Transl. Ralph Manheim. New York: Harper & Row. 1967. p. 187. German: *Vorlesungen über das Wesen der Religion*. Leipzig: Wigand. 1851. p. 241.

طرح نيتشه في وقت لاحق سؤالًا مشابهًا في عمله *شفق الأوثان*: «أيهما يا ترى: هل الإنسان مجرد خطأ من الله، أم أن اللهّ مجرد خطأ من الإنسان؟» [الكتاب ترجمناه لكن لم ننشره ـ مترجم]

(2) راجع: سفر التكوين، 1: 26 وما بعد: «وقالَ الله: لِنَصنَعِ الإِنسانَ على صُورَتِنا كَمِثالِنا وَلْيَتَسَلَّطْ عَلى أَسْمَاكِ البَحرِ وطُيورِ السَّماءِ والبَهائِمِ وجَميعِ وحُوشِ الأَرض وجميعِ الحَيَواناتِ الَّتي تَدُبُ على الأَرض. فَخَلَقَ اللهُ الإِنسانَ على صُورَتِه على صُورَةِ الله خَلَقَهُ ذَكَرًا وأُنثى خَلَقَهم».

لكنه في الوقت ذاته قوة متميزة عنك، ومستقلة عنك؛ إنه فيك، فوقك؛ إنه هو ذاته الذي يشكل الموضوعي فيك ـ كينونتك الخاصة التي تتردد عليك انطباع كينونة أخرى، باختصار، إلهك.[1]

لقد اعتقد فيورباخ أن الله ـ خاصة الإله المسيحي ـ هو تجسيم خلقه انعدام الأمن والجبن في أذهاننا.

بعد أن فهمنا حجة فويرباخ، علينا كمسيحيين أن نسأل أنفسنا كيف نرد، لأن المرء لا يحتاج إلى النظر بعيدًا قبل العثور على السرد نفسه حياً وبصحة جيدة في يومنا هذا. غالبًا ما يتم تجاهل المسيحية والربوبية[2] ككل باعتبارهما اختراعات سخيفة لأولئك الذين لم يتطوروا فكرياً بما يكفي لمواجهة الحقيقة الواضحة: أن الدين تم خلقه كآلية للتكيف من قبل أسلافنا، واليوم لا نحتاج إلى الاعتماد على مثل هذه التركيبات البدائية بسبب معرفتنا العلمية الواسعة (أو أي تطور حديث آخر الذي يمكن أن يكون افتراضاً بديلاً مناسباً). هناك العديد من الطرق للرد على الادعاءات الفويرباخية، لكن هناك ردين على وجه الخصوص مهمين للإشارة إلى أوجه القصور في تأكيدات من هذا النوع: أولاً، إن الافتقار إلى الأدلة التجريبية على وجود الله هو أمر سهل الافتراض، وثانيًا، أن الأدلة لصالح

(1) Feuerbach, Ludwig. *The Essence of Christianity*. Trans. George Eliot. New York: Barnes & Noble, 2004. Print.

(2) في ترجماتي الأخيرة لفويرباخ، اخترت ترجمة مصطلح Theismus الألماني، أو theism الإنكليزي، بكلمة ربوبية. الأولى تعني الإيمان بوجود إله أو آلهة، وخاصة الإيمان بإله واحد كمبدع للكون، والذي يتدخل فيه ويحافظ على علاقة شخصية مع مخلوقاته. دقة الترجمة موضع شك، خاصة وأنها مطروحة كترجمة لمصطلح ألماني آخر هو Deis-mus، أو Deism، باللغة الإنكليزية. ـ مترجم.

فكرة أن البشر لديهم القدرة على العمل بشكل جيد «كآلهتهم» الخاصة هي، في الواقع، مفقودة.

كما ذكرنا سابقًا، يتم التراجع عن حجج فويرباخ بسرعة عندما يبطل افتراضه بأن اللّه لا يمكن ملاحظته تجريبيًا. لطالما اتُهم الربوبيون بمغالطة اسمها «الحجة من الجهل» عند تقديمهم لعلل وجود اللّه. هذا يعني أنه عندما يأتي الربوبي بدليل مثل الضبط الدقيق للكون، وجود الأخلاق، أو ضرورة «محرك غير متحرك»، سوف يجيب الرافضون بأن الربوبي يستخدم ببساطة اللّه «كحشو» مناسب لشرح أي شيء لا نعرف الجواب عليه حتى الآن (هذا هو الموضع الذي نسمع فيه غالبًا مصطلح «إله الثغرات»). ومع ذلك، ما ينقص هذا التأكيد هو فهم الفرق بين حجة من الجهل والاستدلال على أفضل تفسير. لا يؤمن المسيحي المثقف باللّه لأنه لا يوجد دليل على عكس ذلك أو لأن الأمر يناسب بشكل جيد كجواب على أسرار الحياة غير القابلة للحل. إنه يؤمن باللّه لأنه يرى ثروة من الأدلة في التاريخ والبيولوجيا وعلم الفلك، في كل تجربة في حياته، في كل تفاعل، محادثة، واتصال مع كينونة بشرية أخرى، في التجارب الحسية من رؤية، شم، ولمس العالم الطبيعي ـ كل هذه السهام تشير بشكل مؤكد إلى السماوات. وإذا وجدت آثارًا لمخالب موحلة على سجادك وسمعت نباحاً بصوت عالٍ من الغرفة المجاورة، أنت تفترض أن كلبًا عبر منزلك، أنت لا تقوم بتأكيد جاهل، لكنك تستدل على أفضل تفسير للأدلة. كمسيحيين، من المهم أن نكون قادرين على تحديد الأدلة التي تشير إلى وجود اللّه: النظام المنطقي داخل الخلق،

حالة قيامة المسيح،[1] وما إلى ذلك ـ وإلا قد يبدو الأمر وقد اخترعنا لأنفسنا «إله حشو».

يجب أن يكون العنصر الثاني في ردنا على فويرباخيي اليوم هو الإشارة إلى عمق فكرة أن البشر يمكن أن يكونوا كاملين في أنفسهم. مرة أخرى، فإن هذا الادعاء، على الرغم من أنه يتخذ أشكالًا عديدة، فهو ليس نادرًا في يومنا هذا. اكتسبت الشيوعية العديد من الأتباع بسبب ادعائها أنها الوسيلة التي يمكن من خلالها للبشر التوقف عن الاعتماد على الدين والبدء في الاعتماد على أنفسهم؛ ووجدت البوذية المعاد تشكيلها جمهورًا كبيرًا في الغرب لأنها تعلم أهمية «النظر في الداخل» لإيجاد السلام؛ كما تمتلئ مكتباتنا بكتيبات المساعدة الذاتية ومنصاتنا بالوعاظ الذين يشعرون بالرضا وهم يصرخون فينا من أجل «معرفة نفسك» بدلاً من معرفة اللّه.

كم مرة نسمع ترجمات حديثة عن ادعاء فيورباخ بأن «كل كينونة في ذاتها ولأجل ذاتها هي غير متناهية ـ لها إله... في حد ذاتها»؟[2] لكن ما هو الدليل الذي بين أيدينا لدعم الادعاء بأن الإنسان دون اللّه، في الحقيقة، يكون حسن الحال؟ ثمة ما هو أكثر من ذلك، ما هو الدليل الذي بين أيدينا أن الإنسان يمتلك في ذاته القدرة على الوصول إلى ما هو كامل من

---

(1) قيامة المسيح ليست حجة على فويرباخ، بل حجة له. وقد سبق وناقش هذا الفيلسوف هذه المعجزة في أكثر من نص. ففي معالجة له عميقة، مستنداً إلى لوثر، لا يعتبر فويرباخ قيامة المسيح على أنها معجزة. وكما قال لوثر، وفق تعبير فويرباخ، فإن المعجزة هي الحدث المستمر، لا الحدث المكبّل بقيود المكان والزمان. وهكذا، واعتماداً على ما نقله فويرباخ عن لوثر، تسقط عن هذه القيامة صفة المعجزة لتصبح حدثاً عادياً. [مترجم].

(2) Feuerbach, Ludwig. *The Essence of Christianity*. Trans. George Eliot. New York: Barnes & Noble, 2004. Print.

سلام، عقل، حب، أو أي صفة مشرفة أخرى؟ ليس من المبالغة أن الدين استُخدم لتبرير تسويغ وفرة العنف، لكن الإلحاد لم يفتقر إلى نصيبه من إراقة الدماء أيضًا. وبما أن المجتمعات تعلمنت وتراجع الدين التقليدي، فهل أن اتجاهات القلق، الاكتئاب، والوحدة تؤكّد الأفعال الأخرى؟ ألسنا نعيش في عصر العصاب غير المسبوق؟ يبدو أن الدليل على نظرية «الإله الداخلي» مطلوب.

بصرف النظر عن فهم الأيديولوجية وتعلم كيفية الرد، يجب ألا ننسى أن فويرباخ، مثل العديد من الفلاسفة الملحدين، يمكنه أيضًا أن يعلمنا الكثير عن أوجه القصور الخاصة بنا كمسيحيين. فهو يشير إلى أحد هذه المجالات حيث يصف التناقضات بين أولئك الذين يدعون أنهم يتبعون إلهًا إما «عظيمًا جدًا» كي يمتلك أي صفات معينة أو أنه موجود ببساطة وهو اختراع للمُعتَقِد حتى يتمكن من تغيير صفاته كما تبدو مناسبة له. فهو يقول:

«على أساس أن اللّه غير قابل لأن يُعرف، فإن الإنسان يعذر نفسه عما بقي بعد من ضميره الديني لنسيانه للّه، انغماسه في العالم: فهو ينكر اللّه عملياً بسلوكه ـ يحوز العالم كل أفكاره وميوله ـ لكنه لا ينكره نظريًا ولا يهاجم وجوده؛ يتوقف عن الكلام عنه. لكن هذا الوجود لا يؤثر عليه ولا يضايقه؛ إنه مجرد وجود سلبي... إن إنكار المحمولات الحاسمة، الإيجابية المتعلقة بالطبيعة الإلهية ليس سوى إنكار للدين، ومع ذلك، فإن بروز الدين لصالحه، لا يمكن الإقرار به على أنه إنكار؛ إنه ببساطة إلحاد خفي، مقنع»[1]

(1) Feuerbach, Ludwig. *The Essence of Christianity.* Trans. George Eliot. New York: Barnes & Noble, 2004. Print.

يجب ألا ننسى أنه إذا أردنا إثبات صحة وجمال وجود الله، يجب أن نعيش بطريقة لا تخجل من هذا الإله. وهذا يعني أن كلماتنا، دفاعنا عن الإيمان، تفسيرنا للبشارة، على الرغم من أنها أمور لا غنى عنها، يجب أن تكون مصحوبة دائمًا بحياة عمل ونزاهة. بدون مثل هذه النزاهة، كل ما نستطيع أن نصيره هو ما اعتبره بولس «نحاس يطن أو صنج يرن»[1]، وما دعاه فيورباخ بالملحدين المقنعين.

ميكايلا بونك

(1) 1 Corinthians 13.1, *The English Standard Version Bible*. Oxford: Oxford UP, 2009. Print.

[النص أعلاه مأخوذ من الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدّس، مثل كل الشواهد في النص - مترجم].

هجمات على الدين

- لودفيغ فويرباخ
- كارل ماكس
- فريدريش نيتشه
- زيغموند فرويد

من وجهة نظر طبيعية، حيث يعتبر الدين في جميع أشكاله إسقاطًا وهميًا على عالم آمالنا البشرية، مخاوفنا، أو مُثلنا، فإن الادعاءات بالحقيقة للأديان المختلفة كلها خاطئة، وواقعة أنها تتعارض فيما بينها لا تمثل أي مشكلة.

لكن هذه معضلة لمسألة دينية. لقد رأينا بالفعل كيف يحاول أوتو[1] تفسير ذلك. لكن حتى لو كان الدين إيماءة على واقع متعال يفوق الوصف،

---

(1) كان رودولف أوتو (1869 ـ 1937) عالمًا لاهوتيًا وفيلسوفًا وباحثاً في الدين المقارن من اللوثريين الألمان. كما أنه يُعتبر واحدًا من أكثر علماء الدين نفوذاً في أوائل القرن العشرين ويشتهر بمفهومه عن التجربة العاطفية العميقة التي قال إنها كانت في قلب أديان العالم. وفي حين بدأ عمله في مجال اللاهوت المسيحي الليبرالي، كان اتجاهه الرئيس دفاعياً دائمًا، ساعياً للدفاع عن الدين ضد الانتقادات الطبيعية. وتوصل أوتو في نهاية المطاف إلى تصور عمله كجزء من علم الدين، الذي تم تقسيمه إلى فلسفة الدين، تاريخ الدين، وعلم نفس الدين.

فإن بعض «أساس الكينونة» أو كما أرد لنا كيركغارد أن نعتقد، مسألة اختيار شخصي، عاطفي، هل هو من ثم محصن ضد الهجوم؟ حسنًا، ليس وفقًا لهؤلاء المفكرين.

قد لا تخضع الحقيقة والزيف للمذاهب الدينية للتدقيق العقلاني، بل ربما يكون يخضع لذلك الدافع للتفكير الديني. لماذا يلجأ الناس إلى الدين؟ هل هو فقط من أجل التنوير، أم لمنحهم الأمل، أم هو تبرير لغياب العدالة في هذا العالم؟ أم هو هروب، نوع من رد الفعل غير المسؤول على عالم لا يمكننا مواجهته، ربما عدم رغبة طفولية في التخلي عن وهم الأمن الذي كان علينا تجاوزه في مرحلة المراهقة؟

فقط القليل من هيغل (أكثر من كافٍ حقًا):

بالنسبة لهيغل، الحقيقة روح. الروح المطلقة تفكير مفكّر. لكن ما هو التفكير المفكر؟ الفكرة هي فكرة مفكّرة. التعريف الحقيقي للألوهية هو الروح/ الوعي. وحين نشخص هذه الفكرة على أنها «إله»، يمكننا القول إن الإله يحاول أن يفكر بنفسه، أن يعرف نفسه. لكن إنها طبيعة الوعي بأن المرء لا يمكنه أن يعرف شيئًا ما لم يكن هذا الشيء «غرضاً» لوعيه. وهذا ليس أقل صحة عندما يكون «غرض» تفكير المرء هو ذاته (الذات). (لاحظ أنه لأن ننظر لأنفسنا، يجب أن نحوّل أنفسنا إلى «أغراض»، مثل الانعكاسات في المرايا والصور في صورة فوتوغرافية، وما إلى ذلك) ولكن عندما يحول اللّه ذاته *كعارف* (ذات) إلى ذاته *كمعروف* (غرض) فهو يتغرب عن ذاته. والحقيقة هي أن اللّه يُتغرّب ويتعافى.

لكن أن نعرف نفسه على أنه كل ما هو يكون (كينونة) فإنما هو مستحيل

لأننا لا نستطيع أن نعرف شيئًا ما لم نتمكن من مقارنته بما هو ليس كذلك. لا يوجد شيء يقول إن «كل غير ما يكون» لا يكون، لذا فإن محاولة التفكير «بالكينونة» هي محاولة للتفكير بفكرة مستحيلة وهي تؤدي إلى فكرة «العدم». لكن إذا قمنا بتجميع هاتين «الفكرتين» (الكينونة والعدم)، فإننا نُقاد بالدياليكتيك إلى «الصيرورة». في الصيرورة نفهم ذلك الذي هو (كينونة) وذلك الذي هو ليس كذلك (عدماً) ونتجاوز الاثنين.

فالتاريخ إذاً هو قصة الوعي/ الروح/ اللّه الذي يصل إلى معرفة أن ذاته تمتلك غرضاً متخارجاً، متغربًا. الوعي الذاتي هو اللّه عائداً إلى ذاته كفكر. و«الفلسفة المطلقة» الخاصة بهيغل هي النقطة في التاريخ عندما يدرك الوعي أن كل ما يكون وتاريخ العالم هو تاريخه الخاص. (مثل السرد حيث يكتشف بطل الرواية في نهاية القصة هويته الحقيقية). لقد كان الوعي يتحرك نحو فهم أكثر ملائمة دائماً لهذه الحقيقة المركزية والطرق الرئيسة الثلاث التي وصلت بها هذه الحقيقة المركزية إلى فهم أكثر وأكثر ملائمة كانت عبر الفن، الدين والفلسفة.

يؤكد هيغل عقيدة التجسد المسيحية كمظهر رمزي للحقيقة المركزية لمعنى التاريخ: أن الحقيقة الملموسة هي روح تم إعطاؤها الشكل الموضوعي. ويرى هيغل أن الطبيعة هي اللوغوس جعل جسداً، كروح، أي «المسيح» اللامتناهي. تاريخ العالم هو قصة اللوغوس الذي يجعل نفسه جسدًا في الدولة العقلانية وحقوق الإنسان. وهو يعتقد أن هذا هو الفهم الناضج للثالوث المسيحي (الإله الآب، الإله الابن والإله الروح القدس) وبينما يدعي أن المسيحية هي «الدين المطلق»، فإن الفهم الناضج (الهيغلي/ الرومانسي) للمسيحية لديه القليل ليفعله مع حاخام يهودي من

القرن الأول. اللافت للنظر، أنه تحدث باستحسان عن عقيدة نيقية، لكنه يعطيها معنى مجازياً هاماً (من منظور أرثوذكسي على الأقل). يأخذ هيغل من هذا أن «اللّه إنسان». (حيث يكون الإنسان رمزًا لوعي الوعي ـ الذاتي متجلياً بموضوعية).

لودفيغ فيورباخ:

موقف فيورباخ هو اشتقاق من فلسفة/ لاهوت غورغه هيغل التأملية. وفي حين علّم هيغل أن «الإنسان هو إله مغترب ـ ذاتياً»، علّم فيورباخ أن اللّه إنسان، مغترب ـ ذاتياً.

يدافع فيورباخ عما يسميه «الجوهر الحقيقي أو الأنثروبولوجي للدين»:

إن فكرة اللّه هي تحريف لفكرة الإنسان. هناك قيم معينة نطمح إليها ونُظهرها في بعض الأحيان. (الحقيقة، الجمال، الخير ـ القيم الأفلاطونية القديمة). لكن في محاولاتنا المحبطة لتحقيق هذه الأمثولة، تصبح المثل نفسها متغربة عنا، وتُسقط على كينونة مثالية مفترضة.

يقترح فيورباخ أن كل جانب من جوانب اللّه يتوافق مع سمة أو حاجة للطبيعة البشرية؛ ويزعم أنه «إذا أراد الإنسان أن يجد القناعة في اللّه، فيجب عليه أن يجد نفسه في اللّه»؛ وهكذا فإن «اللّه» هو «إنسان». إن اللّه هو مجرد إسقاط خارجي لأفضل ما في طبيعتنا الداخلية. «فالإله غير الخيّر، غير العادل، غير الحكيم، ليس إلهاً». وهو يشير إلى أننا نفهم هذه الصفات نفسها على أنها ما يجعل «اللّه» إلهياً. بمعنى أنها سابقة على اللّه منطقياً. وهكذا فإن «صفات اللّه» (أي، اللّه، الذي يتذكر هو الصفات البشرية) تعمل من خلال الإنسان.

يرى فويرباخ أن الإله «هو مبدأ خلاص [الإنسان]، مبدأ التصرفات والأفعال، ونتيجة لذلك فهو المبدأ والطبيعة الخيران عند [الإنسان]».

هناك ميل بشري لأن يعزو الإنسان صفات إلى معبود دينه لأنه دون هذه الصفات فإن شخصية مثل اللّه ستصبح مجرد غرض، وأهميته ستصبح قديمة، ولن يكون هنالك بعد شعور بوجود اللّه. لذلك، يقول فويرباخ، عندما يزيل الإنسان كل الصفات من اللّه، «لا يعود اللّه بالنسبة له أكثر من كينونة سلبية». إضافة إلى ذلك، لأن الإنسان تخيلي، يُعطي اللّه صفات وهناك يأخذ لنفسه المناشدة. اللّه هو جزء من الإنسان من خلال اختراع اللّه. وبالمثل، فإن الإنسان يُرفض من اللّه لأن «اللّه وحده هو الذي يتصرف من ذاته».

علاوة على ذلك، فإن «المثالية» تتجاوز ما يحققه البشر في الحياة الواقعية في أنها تطلب أن تكون جميع التضحيات من أجل مجده.

وبحسب فويرباخ، يمنعنا الدين من تأكيد خصائصنا وقدراتنا، وهكذا فهو يُغرّبنا عما هو جوهري بالنسبة لنا من خلال وضع تلك السمات في اللّه.

يجادل فيورباخ بأن الآمال والتطلعات للتنمية البشرية إنما هي تُحبط من خلال الاعتقاد باللّه، بقدر ما يعني الاعتقاد باللّه اغتراب ما هو بشري جوهرياً عن أنفسنا. فهو يدعي أنه طالما أننا ما نزال مغتربين عن قيمنا (ومن ثم أنفسنا) من خلال عمل الإسقاط هذا، لن نتمكن أبدًا من تحقيق ازدهار بشري كامل. لا يمكننا أن نصبح اللّه (إله إسقاطنا) إلا بالتخلي عن الدين التقليدي.

فقط من خلال إلغاء صورة «العائلة السماوية» يمكننا (سنقوم) إحلال السلام، المحبة والسعادة لعائلاتنا الأرضية.

جوهرياً، الدين وممارساته، مذهبه، والأنطولوجيا المرافقة هي إسقاطات ذهنية تعبر عن الهموم والقيم الإنسانية.

يناقش فويرباخ «الجوهر الكاذب أو اللاهوتي للدين»، أي الرأي الذي يعتبر أن اللّه له وجود منفصل ضد الإنسان. ونتيجة لذلك، تنشأ معتقدات خاطئة مختلفة، مثل الاعتقاد بالوحي، القيامة. ويعتقد فيورباخ أن هذه المذاهب الزائفة لا تؤذي المعنى الأخلاقي فحسب، بل إنها «تسمم، لا بل تدمر، المعنى الأكثر إلهية في الإنسان، معنى الحقيقة». وبالمثل، فإن الإيمان بسلطات الأسرار الدينية المقدسة إنما تكون «العواقب الضرورية [له] هي الخرافات والفسوق».

وفقاً لفويرباخ، لعب الدين دورًا مهمًا في تاريخ البشرية من خلال الإشارة إلى كيفية أن يطمح الوجود البشري إلى ما لم يحققه بعد. لكن الإيمان باللّه (كما يقول) يقف الآن في طريق تحقيق الإنسان، لأنه يمنعنا من رؤية كيف أن اللّه هو ببساطة الامتداد اللامتناهي للبشرية، وقد أخذ شكلاً أمثولياً وغُرّب عن جوهرنا.

كارل ماركس:

في البداية كان ماركس مفتونًا بكتابات فيورباخ: «لا يمكن للمرء أن يعمل في الفلسفة دون المرور عبر الجدول الناري»؛ [فويرباخ، بالألمانية

تعني الجدول الناري ـ مترجم]. مع ذلك، فقد انتقده في النهاية فيما يتعلق بالسلطة المفترضة التي نسبها إلى «الفكرة». الدين ليس سبب الاغتراب، كما اقترح فيورباخ، بل كان عرضًا له.

كتب ماركس في عمله، «*أطروحات حول فويرباخ* *Theses on Feuerbach*»، «بمجرد اكتشاف أن الأسرة الأرضية هي سر الأسرة السماوية، يجب عندئذٍ أن يتم انتقاد الأسرة الأولى نفسها نظريًا وتغييرها جذريًا في الممارسة العملية». ويختتم بما يلي: «لقد فسّر الفيلسوف العالم بطرق مختلفة: الهدف منها هو تغييره».

يعتقد ماركس أنه بمجرد تغيير التسلسل الهرمي للعائلة (هيكل السلطة) بشكل جذري جنبًا إلى جنب مع التسلسل الهرمي للسلطة في المجتمع (الذي تعد الأسرة مرآة له)، فإن فكرة العائلة المقدسة ستختفي ببساطة.

ينتقد ماركس فيورباخ لعدم شرحه سبب اغتراب البشر عن أنفسهم إلى درجة أنهم على استعداد للهروب من الواقع من خلال «أفيون» الدين. ويزعم ماركس أن المصدر الحقيقي الذي يفسّر لماذا يلجأ الناس إلى أوهام الدين هو الرغبة في تجنب البؤس الناجم عن عدم المساواة، الهياكل، والعلاقات الاجتماعية.

باختصار، يدعي ماركس أن البشر يخترعون الدين هربًا من ظروفهم الاجتماعية التي لا تطاق. ويزعم أيضًا أنه بمجرد إدراك ذلك، يجب أن نرفض الدين باعتباره هروبًا وننتقل بدلاً من ذلك إلى عمل لتصحيح تلك الشروط التي تجعل مثل هذا الهروب ضروريًا.

من نقدية فلسفة الحق لهيغل للحق بقلم كارل ماركس:

أساس النقدية اللادينية هو: الإنسان يصنع الدين؛ الدين لا يصنع الإنسان. الدين هو في الواقع الوعي ـ الذاتي المعرفة ـ الذاتية للإنسان طالما أنه لم يجد نفسه أو أنه فقد نفسه مرة أخرى. لكن الإنسان ليس كينونة تجريدية، يقرفص خارج العالم. الإنسان هو كل ما هو بشري من عالم، دولة، مجتمع. وتنتج هذه الدولة، هذا المجتمع، الدين الذي هو وعي عالمي مقلوب، لأنهما عالم مقلوب. الدين هو النظرية العامة لهذا العالم، خلاصته الموسوعية، منطقه في الشكل الشعبي، وجهة نظره الروحية، حماسه، تكريسه الأخلاقي، مكمله المبجل، أساسه العام في العزاء والتبرير. إنه التحقيق الخيالي للكينونة البشرية بقدر ما لا تمتلك الكينونة البشرية حقيقة حقيقية. لذا فإن النضال ضد الدين هو، بشكل غير مباشر، نضال ضد هذا العالم الذي أرومته الروحية هي الدين.

المعاناة الدينية هي في الوقت نفسه تعبير عن معاناة واحتجاج حقيقيين ضد المعاناة الحقيقية. الدين هو تنهيدة المخلوق المظلوم، شعور عالم بلا قلب، ونَفْس ظروف بلا نفس. إنه أفيون الشعب.

إن إلغاء الدين باعتباره السعادة الوهمية للبشر، هو مطلب لأجل سعادتهم الحقيقية. والدعوة للتخلي عن أوهامهم بشأن ظروفهم هي دعوة للتخلي عن ظرف يتطلب أوهامًا. لذلك، فإن نقد الدين هو النقد الجنيني لوادي الدموع الذي الدين هالته المقدسة.

فريدريش نيتشه:

بعد خمسين عامًا، شنّ فريدريش نيتشه هجومًا أكثر فظاعة على الدين

بشكل عام، وعلى المسيحية بشكل خاص. المسيحية متهمة بأنها ليست سوى أفعال لمحاولة شرح أو تبرير سلوك أو موقف بأسباب منطقية، حتى لو لم تكن مناسبة، للضعف والعجز؛ إنها تعبير عن أكثر أنواع الازدراء في الطبيعة البشرية.

لمعرفة لماذا يقول هذا، سيكون من المهم أن نقول كلمة أو اثنتين حول مفاهيمه المتعلقة بمذاهب/ أخلاقيات «تأكيد الحياة» ومذاهب/ أخلاقيات إنكار الحياة

تأكيد الحياة مقابل إنكار الحياة:

نيتشة: *شفق الأوثان*!

شفق الأوثان أو كيف يتفلسف الإنسان بالمطرقة، بالألمانية: *Götzendammerung, oder: Wie man mit dem Hammer*) (*philosophirt, 1889* [ترجمناه إلى العربية دون أن ننشره؛ أنظر كتابنا، *نيتشه والدين* ـ مترجم]. عنوان الكتاب هو إشارة ساخرة إلى عنوان أوبرا فاغنر، شفق الآلهة Twilight of the Gods (Götterdammerung). فلسفة نيتشه ليست منهجية. أسلوبه حِكَمِيّ وجزل. إنه يرفض محاولات إنشاء «نظام فلسفي» لأنه يدعي أن إرادة الضرورة تفشل في تحقيق العدالة لتفرد الفرد. كما هي العادة في كتابة أعماله الأخرى، يتألف النص إلى حد كبير من الحكم الأمثولية ومن فقرات قصيرة حول مواضيع واسعة النطاق.

العديد من عبارات نيتشه في عمله *شفق الأوثان* استفزازية ومثيرة للجدل عن سابق قصد وتصميم. فهو يهاجم الديمقراطية، الاشتراكية،

المرأة، المسيحية، اليهودية، الهندوسية، العقلانية، والإيثار. إن معارضته لأي مفهوم للحقيقة الأخلاقية إنما هو نتيجة لمعارضته لأي مبدأ عالمي للأخلاق. ولأسباب سبق ذكرها، فهو يرى في كل من هذه الأمور محاولة لإخفاء هوية الفرد ونفيه. فهي لا يمكن لها أن تكون غير أدوات قمع وكبت.

نيتشه ليس عدميًا؛ فالعدمية تؤكّد أنه لا توجد قيم أخلاقية، وأنه لا يوجد شيء اسمه الأخلاق. بدلاً عن ذلك، يقول نيتشه إنه يجب أن يكون هناك «إعادة تقييم لكل القيم». إنه لا يجادل بأن القيمة الأخلاقية غير موجودة، بل إنه تمت إساءة تفسيرها وإساءة فهمها. كما يقول إن الأخلاقية مزيفة حين تفترض أن هناك حقائق أو قيمًا أخلاقية والتي هي عالمية، أو التي هي مستقلة عن الحالات الخاصة التي تطبق فيها الأخلاقية.

يتركز اهتمام نيتشه المركزي في كلامه عن التأكيد على الحياة بدلاً من إنكارها. إنه يريد أن يقول «نعم» للحياة، ويعارض أية فلسفة أو نظرة عالمية تنكر الحياة أو «إرادة الحياة». فهو يقدم «إعادة تقييم للقيم».

هنا كما في أي موضع آخر، ينتقد المسيحية بشدة. مع ذلك، من خلال استهدافه للمسيحية فهو يستهدف مجمل الأخلاق الفيكتورية الغربية التقليدية. تأمل الثقافة الفيكتورية. لقد كانت «استبدادية» للغاية. لكن ماذا يعني هذا؟ استبدادية لماذا؟

الجنس:

وأشياء أخرى. كان العمل هو داخل حدود «مجتمع محتشم» قسرياً ومقيداً للغاية. لكن هذا هو قمع للحياة ودوافع الحياة. وبحسب نيتشه، هذا يعني «لا» للحياة، لا لمن نحن وما نحن.

يدين نيتشه المسيحية، واصفاً إياها بالفساد والتفسخ. وهو يميز أصول المسيحية بهذه الطريقة. كان يهود القرن الأول الميلادي شعباً يُعرَّضُ للضرب، مهزوماً، محتلاً، ومفقراً. من ناحية أخرى، كان الرومان المحتلون متفوقين: أقوياء، أثرياء، جنسيون. كان الرومان أغنياء بالقيم الطبيعية للحياة (الكبرياء، القوة، الجنس) بينما لم يكن الناس الذين غزوهم كذلك. وقد أظهر الرومان «إرادة القوة» بشكل كامل وكانوا يؤكدون الحياة بطريقة لم يكنها المهزومون ولا يمكن لهم أن يكونوها.

الآن فإن الاستجابة الطبيعية للضعفاء هي أن يحسدوا الأقوياء وأن يلعنوا حالتهم الشخصية البائسة. لكن عبقرية المسيحية كانت في منحهم خيارًا آخر. إنها تعلّم أن الأقوياء يجب أن يُشفق عليهم، لا أن يُحسدوا. أنظر «العظة على الجبل» من العهد الجديد المسيحي.

طوبى للودعاء والمتواضعين (وليس الفخورين). طوبى للفقراء والجياع والعطاش. [النص مأخوذ عن الترجمة الكاثوليكية العربية، دون وجود لكلمة متواضعين في النص الأصلي. النص من متى، الإصحاح الخامس ـ مترجم]. الآن فإنه من منظور نيتشه هذا جنون محض. فالجميع يعلمون أنه من الأفضل أن يكون الشخص ثريًا، قويًا، وحيويًا جنسياً لا العكس. والشعب المهزوم لم يكن في وضع يسمح له بالشفقة على أي شخص، ربما باستثناء أنفسهم.

لكن هذا الوهم الصغير جعل الضعفاء يشعرون بتحسن حيال كونهم ضعفاء. لقد حان الوقت لأن يكونوا أكثر من مصدر عزاء للمستعبدين، بل نوع فعلي من القوة الفاسدة. لقد أعطاهم هذا الوهم قوة لتحمل بؤسهم وأداة لممارستها ضد المتفوقين طبيعياً. ويمكنهم أن يقولوا لرؤسائهم،

«أوه بالتأكيد، إنكم تعتقدون أن الأمر جيد للغاية الآن، لكن اللّه في النهاية سيتمكن منكم!».

ولنلاحظ النفاق المتأصل. ما هو ثواب حياة التواضع؟ تاج المجد ومقعد على يمين اللّه الآب. ما هو ثواب حياة زهدية تنكر المتعة؟ النعيم اللانهائي. ما هو الثواب الموعود لحب أعدائك وتحويل خدك الآخر؟ رؤية أعدائك يحترقون في الجحيم، يعذبون إلى الأبد. وبمرور الوقت، أصبح دين التواضع والوداعة وسيلة حقق بها الناس الدونيون كل ما هو عظيم من شهرة ومجد وثراء وقوة وجنس.

إن السعي وراء هذه الأشياء يجب ألا يفاجئنا. هذه هي السلع الطبيعية. إنها السلع الطبيعية التي يمكن للأشخاص المتفوقين السعي وراءها وتأمينها لأنفسهم، لكن الضعفاء لا يمكنهم ذلك. لذا فإن الضعيف يتوجه إلى «دين العبد» هذا، كما أسماه نيتشه، وأخلاقية العبيد الخاصة به كوسيلة خبيثة للغايات ذاتها تماماً. ومعها يسعون لقمع الأقوياء طبيعياً بدعايتها للقيم الزائفة.

ربما لا توجد صورة مسيحية تجسد طبيعة «إنكار الحياة» عند المسيحية أفضل من صورة «الأسد يجلس مع الحمل»[1]. حسناً، ففي العالم الحقيقي تأكل الأسود الحملان. إنهم يمزقونهم إرباً إرباً، في الواقع. والرغبة بشيء آخر، التوق إلى عالم كرتوني مثل هذا، هو إنكار لهذا العالم، قول «لا» له. إن تأكيد الحياة حقًا ليس مجرد استقالة من العيش في العالم كما هو، بل احتضانه وترك بصمة من إرادتك عليه بقدر ما يمكن.

(1) لاحظ، على سبيل المثال: «فيَسكُنُ الذِّئبُ مع الحَمَلِ وَيربِضُ النَّمِرُ مع الجَدْيِ ويَعلِفُ العِجلُ والشِّبلُ معاً وصَبِيٌّ صَغيرٌ يَسوقُهما» (اشعياء 6:11 ـ مترجم).

وهكذا فإن نيتشه يدعو إلى «إعادة تقييم كل القيم». وتشير «الأصنام» إلى معتقدات فارغة أو جوفاء يمكن «طرقها لسماع صوتها» بمطرقة الفيلسوف.

إرادة القوة:

على النقيض من شوبنهاور الذي يفترض «إرادة الحياة»، يدعي نيتشه أن القوة الدافعة في الإنسان هي إرادته لتوسيع نفسه، للتأثير والسلطة. إن «إرادة القوة» هي السعي لكسب إتقان الذات والوجود وهي واضحة في السعي إلى مد النفس. وتمثل المساومة والمراوغة شكلاً من أشكال عدم الأمانة الفكرية.

إنكار «إرادة القوة» هو شكل من أشكال *التفسخ* [*التفسخ* مقولة رئيسة عند نيتشه ـ مترجم]، وهو يعكس الانحدار أو الانحطاط في القيمة الطبيعية. إنكار الغريزة هو إنكار «لإرادة الحياة». ونيتشه يجادل بأن أخلاقية نفي ـ الذات وإنكار ـ الذات (إنكار الحياة) كما عند المسيحيين المهووسين، إنما تصبح أداة للقمع والاضطهاد.

سوبرمان:

تم تقديم مفهوم السوبرمان (بالألمانية Übermensch) في وقت مبكر من قبل نيتشه في عمله *هكذا تكلم زرادشت* (1883 ـ 1885). وهذا السوبرمان يتخطى المفاهيم التقليدية لـ«الخير» و«الشر»، لأنه يؤكد «إرادته للحياة». إنه يخلق السعي وراء قيمه الإيجابية، التي تؤكد «إرادة القوة».

السوبرمان هو الإنسان الذي يستطيع التغلب على غرائزه الخاصة، لكنه

لا ينكرها. يتسيد السوبرمان على غرائزه، حتى يتمكن من التعبير عن نفسه بشكل كامل. السوبرمان هو الإنسان الذي تسامت إرادة قوته بشكل خلاق [أنظر كتابنا، *نيتشه والدين* ـ مترجم].

بالنسبة إلى نيتشه، يتم اعتناق الحرية الحقيقية على نحو موثوق عندما يرغب الفرد في أن يؤكّد ذاته ويكون مسؤولاً عنها. وتتطلب الحرية النضال وهي تكتسب من خلال قبول الحياة وتأكيدها، على الرغم من آلام الحياة ومعاناتها. تقاس الحرية بالمقاومة التي يجب التغلب عليها، وبالجهد المبذول لأجلها، لاتخاذ الخيارات والمسؤولية عنها. فنضالنا ومعاناتنا تأخذان معنى للسلطة التكوينية التي تتمتع بها والحرية التي تتيحها. وحتى سيزيف فإنه حر (نبيل) بهذا المعنى. تتطلب الحرية أيضًا أن نتسيد على غرائزنا. الحرية لا تعني إنكار دوافع المرء وغرائزه، لكن يجب أن لا نكون مستعبدين لها أيضًا.

من ما وراء الخير والشر وعدو ـ المسيح، لفريدريتش نيتشه:

في «العهد القديم» اليهودي، كتاب العدالة الإلهية، ثمة أناس، أشياء، وخطب بأسلوب عظيم إلى درجة أن الأدب اليوناني والهندي ليس لديه ما يمكن مقارنته به. يقف المرء خائفاً وموقراً أمام هذه البقايا الهائلة لما كان عليه الإنسان ذات يوم، والأفكار الحزينة تأتي إلى المرء عن آسيا القديمة وشبه جزيرتها المتعرجة، أوروبا، التي تريد بالتأكيد أن تشير، بما يعاكس آسيا، إلى «تقدم الإنسان». وبطبيعة الحال، فإن أولئك الذين هم مجرد حيوانات بائسة مروضة أليفة ولا يعرفون إلا احتياجات الحيوانات الأليفة (مثل شعبنا المثقف اليوم، بما في ذلك مسيحيو المسيحية «المثقفة») لا يحتاجون إلى الذهول أو حتى الأسف عندما يواجهون هذه الآثار: إن مذاق

العهد القديم هو محك «العظمة» و«الصغر». وربما سيجدون حتى العهد الجديد، كتاب النعمة، أقرب إلى ذوقهم (إنه مليء برائحة النفاق والنفس الدنيئة الحقيقيتين، الخانقتين، الغبيتين). إن إلصاق هذا العهد الجديد[1]، وهو نوع من بهرجة الذوق من كل النواحي، بالعهد القديم لتشكيل كتاب واحد ـ «الكتاب المقدس» ـ الكتاب ربما يكون العمل الأكثر وقاحة بل «خطيئة ضد الروح» التي تجعلها أوروبا الأدبية في ضميرها.[أنظر ترجمتنا لعمله، *عدو المسيح* ـ مترجم].

---

(1)ومرّة أخرى عادت غريزة اليهودي الكهنوتيّة لترتكب الجريمة الكبيرة ذاتها بحق التاريخ ـ لقد محت ببساطة البارحة وأوّل البارحة للمسيحيّة، *واخترعت لذاتها تاريخاً للمسيحيّة الأولى*. هنالك ما هو أكثر: فقد عادت لتزييف تاريخ إسرائيل لتجعل منه التاريخ السابق لعملها هي: فكلّ الأنبياء يتحدّثون عن «فاديها» هي... من هنا فقد زيّفت الكنيسة لاحقاً حتى تاريخ الجنس البشري عبر تزييف التاريخ الذي سبق المسيحيّة.... أنموذج الفادي، التعاليم، العرف، الموت، معنى الموت، ما بعد الموت بالذات ـ لم يترك شيء على حاله، لم يترك شيء يحمل حتى أدنى شبه بالواقع. فبولس نقل ببساطة مركز جاذبيّة ذاك الوجود برمته *إلى ما وراء* هذا الوجود، ـ في *كذبة* يسوع « القائم من بين الأموات». والواقع أنه لم يكن باستطاعته استخدام حياة الفادي على الإطلاق ـ كان بحاجة إلى الموت على الصليب *وإلى* أمور أخرى... إن المراقبة الأمينة لبولس ما، الذي كان موطنه المركز الأساسي للتنوير الرواقي، حين يصنع من هلوسة *الدليل* على أن الفادي *ما يزال حيّاً*، أو حتى تصديق قصته بأنه كانت عنده هذه الهلوسة، فذلك سيكون *حماقة* فعليّة من قبل عالم النفس: فبولس كان يرغب بالوصول إلى الهدف، وبالتالي كان يرغب بالوسيلة لذلك... ما لم يكن يصدّقه هو ذاته صدّقه أولئك المعتوهون الذين ألقى تعاليمه بينهم. ـ كانت السلطة مطلبه هو؛ مع بولس بحث الكاهن عن السلطة من جديد، ـ لم يكن باستطاعته غير استخدام تلك المفاهيم، التعاليم، الرموز، التي يستعبد الجماهير بها، يشكّل قطعاناً. *ما هو* الشيء الوحيد الذي أخذه محمد عن المسيحيّة لاحقاً؟ تلفيقة بولس، وسيلته لإنشاء استبداديّة كهنوتيّة، لتشكيل قطعان: الاعتقاد بالخلود ـ *أي ما يسمّى بالتعاليم المتعلّقة « بالدينونة »*...[من *عدو المسيح*، الفقرة 43 ـ مترجم].

فقرات من عدو المسيح: [الترويسة هنا من المترجم]

على المرء أن لا يزيّن المسيحية ولا يزخرفها: لقد شنت حرباً حتى *الموت* على الأنموذج البشري الرفيع، حرّمت كل الغرائز لهذا الأنموذج، استقطرت الشر، الشرير، من هذه الغرائز: ـ الإنسان القوي بوصفه أنموذج الاستنكار، بوصفه «المنبوذ». [الفقرة الخامسة ـ مترجم].

لقد وقفت المسيحية بجانب كل ما هو ضعيف، دنيء، وفاشل، صنعت أمثولتها من معارضة الغرائز الصائنة للحياة القويّة؛ حرمت العقل من أقوى طبائعه فكرياً عن طريق تعليم البشر أن يشعروا بأن أرفع قيم الفكر هي آثمة، مغوية، *إغواءات*... ومن الخوف رُغِب بالأنموذج المعاكس، *فرُبّي وأُنجز*: الحيوان الداجن، حيوان القطيع، الإنسان الحيوان المريض ـ المسيحي... [الفقرتان الخامسة والثالثة ـ مترجم].

وما دام الكاهن، هذا المُنكر للحياة، المفتري عليها والمسمّم لها *بالاعتراف*، ما يزال يُعتبر نوعاً *عالياً* من الكائنات البشرية، لن تكون هناك إجابة على السؤال: ما هي الحقيقة؟ لقد *جعل* المرء الحقيقة تقف على رأسها حين اعتبر هذا المدافع الواعي عن الإنكار والعدم الممثّل «للحقيقة»... [الفقرة الثامنة ـ مترجم].

لا الأخلاق ولا الدين في المسيحيّة يمسّان الواقع بأيّة نقطة. [الفقرة الخامسة عشرة ـ مترجم].

وهذا العالم التخيّلي البحت متميّز عن عالم الأحلام، ويضرّ به كثيراً، على أساس أن الأخير يعكس شيئاً فعليّاً، في حين أن الأوّل يبخس العالم قيمته، يزيّفه، ينكره. ومنذ تمّ استنباط مفهوم «الطبيعة» كمفهوم مناقض

للمفهوم «إله»، كان لا بدّ أن تكون الطبيعة كلمة «تستحقّ التوبيخ» ـ تجذّر كلّ هذا العالم التخيّلي في *كراهية* الطبيعة (ـ الواقع الفعلي! ـ)، فهو التعبير العميق عن الاستياء من كلّ ما هو فعلي... *لكن ذلك يفسّر كلّ شيء*. من ذا الذي لديه أسبابه وحده لأن *يضع نفسه خارج* الواقع الفعلي؟ إنّه الذي *يعاني* منه. [الفقرة الخامسة عشرة].

المفهوم المسيحي للإله ـ الإله كإله للمرضى، الإله كعنكبوت، الإله كروح ـ هو واحدٌ من أفسد المفاهيم للإله التي وصلت الى الأرض: بل ربما يمثّل العلامة الدنيا في التدرّج الهابط لإنموذج الإله. [الفقرة الثامنة عشرة ـ مترجم].

بقي إله الرتابة المسيحيّة الحقير هذا، كما لو أنّه متواجد بالحق، كذروة وحدّ أعلى للقوّة الإلهيّة الخلاّقة، *للروح الخلاّقة* في الانسان! نغل الفراغ والمفاهيميّة والتناقض هذا، هذه الصورة للتحلّل، التي تحوز فيها على التقديس، كلّ الغرائز *المتفسّخة*، كل جبن النفس وإرهاقها! ـ [الفقرة التاسعة عشرة ـ مترجم]

[ملاحظة: كل الفقرات السابقة مستلة من ترجمتنا الخاصة ـ مترجم].

يتنبأ نيتشه بانهيار المسيحية، والدين بشكل عام، ولا يمكن أن يكون أكثر سعادة إلا بذلك. من المعروف تماماً أن نيتشه أعلن أن «اللّه مات»[1].

(1)وطرحها قبله الفيلسوف الذي رحل منتحراً في قمة شبابه وعطائه، فيليب مينلاندر Philipp Mainländer (1876 - 1841) مترجم.

من العلم السعيد لنيتشه:

إن أهم الأحداث الأخيرة أن «اللّه مات» ـ أن الاعتقاد بالإله المسيحي قد أصبح غير جدير بالإيمان ـ يبدأ بالفعل في إلقاء ظلاله الأولى على أوروبا. بالنسبة للقلة القليلة على الأقل التي عينها، التي نظرتها المرتابة، قوية بما يكفي ودقيقة بما يكفي لهذه الدراما، يبدو أن بعض الشمس قد غربت، يبدو أن بعض الثقة القديمة، العميقة قد تحوّلت إلى شك: لا بدّ أن عالمنا القديم يبدو لهم يوميًا داكناً أكثر، أكثر افتقاداً للثقة، غريباً و«قديماً». لأنه على المرء أن يفترض بشكل عام، أن الحدث نفسه كبير جدًا، ناءٍ جدًا، بعيد جدًا عن قدرة معظم الناس على الاستيعاب، بحيث يفترض المرء أن ذلك بقدر ما أمكن للتقرير عنه أن يصل إليهم؛ ناهيك عن العديد من الذين عرفوا بالفعل ما حدث، ولماذا يجب أن ينهار كل ذلك الآن بحيث أن هذا الاعتقاد كان قد تم تقويضه ـ لأن الكثير بني عليه، الكثير قام عليه، وأصبح واحدًا معه: على سبيل المثال، أخلاقنا الأوروبية بأكملها.

لكن هذا لا يجب أن يكون سبب الكآبة والحزن، بل العكس.

... ربما عكس ما كان متوقعًا ـ ليس حزينًا ولا مكتئبًا على الإطلاق. بل بالأحرى مثل مجموعة متنوعة جديدة من الضوء لا توصف. السعادة، الراحة، الغوث، والتشجيع واليوم البازغ؟... في الواقع، نحن الفلاسفة و«الأرواح الحرة» نشعر بأنفسنا مشعين كما بفجر جديد من التقرير الذي يفيد بأن «الإله القديم قد مات»: قلوبنا تفيض بالامتنان، الدهشة، الحنين والتوقع. أخيراً يبدو الأفق مفتوحاً مرة أخرى، حتى لو سلمنا أنه ليس مشرقاً؛ يمكن لقطع سفننا أن تمخر عباب البحر على الأقل في مواجهة

كل خطر؛ كل مجازفة مسموحة للمتبين مرة أخرى. البحر، بحرنا، مرة أخرى ينفتح أمامنا؛ ربما لم يحدث أن تواجد هذا «البحر المفتوح» من قبل.

(بسبب ورودها في الفئة الأولى، فقد قمت ببعض الأبحاث حول منظور نيتشه للبوذية. فبينما كان ينظر إليها بشكل أكثر إيجابية مما فعل حيال المسيحية (التي لا تقول الكثير)، إلا أنه مع ذلك أدانها لكونها إن لم تكن «إنكاراً للحياة»، فهي ليست «تأكيداً للحياة»).

يقال إن بوذا قد أصبح على دراية بالطبيعة سريعة الزوال للواقع من خلال لقاءاته مع رجل مريض، رجل عجوز، ورجل ميت. هذا ما يشير نيتشه إليه في هذا المقطع من *هكذا تكلّم زرادشت*:

«ثمة من يستهلكون النفس: بالكاد يولدون عندما يبدأون في الموت ويتوقون إلى مذاهب التعب وإنكار الذات. إنهم يودون أن يكونوا ميتين، وينبغي أن نرحب برغبتهم. دعونا نحذر من إيقاظ الموتى وإزعاج هذه التوابيت الحية! إنهم يواجهون رجلاً مريضاً أو رجلاً عجوزاً أو جثة ويقولون على الفور: «الحياة مُدحضة». لكنهم هم وحدهم الذين تم دحضهم، وعيونهم، التي لا ترى سوى هذا الوجه للوجود»

يبدو أنه ينتقد الانسحاب من العالم الذي تشجع عليه البوذية، والعوز إلى الفردية والفعل. وتبدو إجابة البوذية على المعاناة بالنسبة لنيتشه انسحاباً من الحياة ومن ثم استجابة أضعف على الوضع البشري مما هي استجابته. فهو يقترح أن طريقة التفكير هذه إنما تعزز «الابتعاد العدمي عن الحياة، أو التوق إلى العدم، أو «لنقيض» الحياة، لنوع مختلف من «الكينونة». ووفقاً

لنيتشه، يمكن وصف البوذية بأنها جهد، من خلال ضبط النفس من العمل، للهروب من المعاناة والعبور إلى عدم ـ وجود مطلق.

في *معزل عن الخير والشر*، يقارن البوذية وفلسفة شوبنهاور بفلسفته: «كل من سعى مع بعض التوق الغامض، كما فعلت أنا، إلى التفكير بالتشاؤم حتى أعماقه وتحريره من ضيق الأفق والبساطة نصف ـ المسيحيين ونصف ـ الألمانيين الذي قدم فيهما نفسه في النهاية إلى قرننا، أي، في شكل فلسفة شوبنهاور؛ كل من نظر في الواقع، بعين آسيوية وما فوق آسيوية، في أكثر طرق التفكير الممكنة إنكارًا للعالم ـ بمعزل عن الخير والشر ولم تعد، مثل بوذا وشوبنهاور، تحت تأثير تعويذة ووهم الأخلاق ـ يمكن بذلك فقط، دون معنى حقيقي للقيام بذلك، فتح عينيه على الأمثولة المعاكسة: أمثولة الكينونة البشرية الأكثر حماسة، الحية، والمؤكدة ـ للعالم التي لم تقبل وتتعلم أن تتناغم مع كل ما كان وما يكون فحسب، بل التي تريد أن تحصل على ما كان وما يتكرر إلى الأبد... ».

زيغموند فرويد:

أخيراً، في القرن العشرين، أعطي الهجوم على الدين مدداً من التحليل النفسي. فيقترح زيغموند فرويد أن التطلعات الكبرى للدين هي مجرد أوهام، بل هنالك ما هو أسوأ، فهي أوهام لعقل غير آمن غير ناضج لشخص لم يسبق أن تربّى بشكل صحيح على الإطلاق.

من *مستقبل وهم* لزيغموند فرويد:

... الأصل النفسي للأفكار الدينية. وهذه، التي يتم تقديمها على أنها تعاليم، ليست رواسب من الخبرة أو نتائج نهاية التفكير: إنها أوهام، تحقيق

لأقدم رغبات البشرية، أقواها، وأكثرها إلحاحًا. ويكمن سر قوتهم في قوة تلك الرغبات. وكما نعرف بالفعل، فإن آثار الانطباع المرعب بالعجز في مرحلة الطفولة تثير الحاجة إلى الحماية ـ الحماية من خلال الحب ـ التي يقدمها الأب؛ والاعتراف بأن هذا العجز يستمر طوال الحياة جعل من الضروري التمسك بوجود الأب، لكن هذه المرة بشكل أكثر قوة. وهكذا فإن السلطة الخيرية للعناية الإلهية تخفف من خوفنا من مخاطر الحياة؛ ويضمن إنشاء نظام عالمي أخلاقي الوفاء بمتطلبات العدالة، التي ظلت في كثير من الأحيان غير محققة في الحضارة الإنسانية؛ وإطالة الوجود الأرضي في حياة مستقبلية توفر الإطار المحلي والزمني الذي يتم فيه تحقيق هذه الرغبات. إن الإجابات على الألغاز التي تغري فضول الإنسان، مثل كيف بدأ الكون أو العلاقة بين الجسد والعقل، إنما تم تطويرها وفقًا للافتراضات الأساسية لهذا النظام. إنه ارتياح كبير للنفس الفردية إذا تم التخلص من صراعات طفولتها الناشئة عن صراعات عقدة ـ الأب التي لم تتغلب عليها بالكامل مطلقًا، والوصول بها إلى حل مقبول على نحو شامل.

عندما أقول إن هذه الأشياء هي كلها أوهام، فيجب أن أحدد معنى الكلمة. الوهم ليس مثل الخطأ؛ ولا هو بالضرورة خطأ. كان اعتقاد أرسطو بأن الأوهام تنشأ عن الروث (وهو اعتقاد ما يزال الجهلة يتشبثون به) خطأ؛ كذلك كان اعتقاد جيل سابق من الأطباء أن tabes dorsalis [1] هو نتيجة

(1) تدهور بطيء للخلايا العصبية والألياف العصبية التي تنقل المعلومات الحسية إلى الدماغ. تقع الأعصاب المتدهورة في الأعمدة الظهرية للحبل الشوكي (الجزء الأقرب إلى الجزء الخلفي من الجسم) وتحمل معلومات تساعد على الحفاظ على إحساس الشخص بموقفه. [مترجم].

الإفراط الجنسي. سيكون من الخطأ أن ندعو هذه الأخطاء بالأوهام. من ناحية أخرى، كان وهماً من كولومبوس أنه اكتشف طريقًا بحريًا جديدًا إلى جزر الهند. والدور الذي لعبته رغبته في هذا الخطأ واضح للغاية. يمكن للمرء أن يصفه بأنه وهم تأكيد بعض القوميين على أن العرق الجرماني ـ الهندي هو الوحيد القادر على الحضارة؛ أو الاعتقاد، الذي دمره التحليل ـ النفسي وحده، أن الأطفال مخلوقات دون جنسانية. ما يميز الأوهام أنها مشتقة من الرغبات البشرية. وفي هذا الصدد فهي تقترب من الأوهام النفسية. لكنها تختلف عنها أيضًا، بصرف النظر عن التركيب الأكثر تعقيدًا للأوهام. في حالة الأوهام، نحن نؤكد على كونها جوهرية في تناقضها مع الواقع. لا تحتاج الأوهام بالضرورة لأن تكون خاطئة ـ هذا يعني، أنها غير قابلة لأن تُدرك أو أنها تتعارض مع الواقع... وهكذا فنسمي الاعتقاد وهمًا عندما يكون تحقيق ـ الرغبة عاملاً بارزًا في دوافعه، وبذلك نتجاهل علاقاته بالواقع، تمامًا كما لو أن الوهم نفسه لا يمتلك ثقة عبر التحقق.

جوهر الدين

الإله صورة الإنسان.

اعتماد الإنسان على الطبيعة المصدر الأخير والوحيد للدين.[1]

[تشكّل المقالة التالية أساس وجوهر عمل الكاتب الأكثر ضخامة، الذي تم نشره تحت العنوان ذاته، كمكمّل لعمله السابق: جوهر *المسيحية* (ترجمة ماريون إيفانس، التي ترجمت أيضاً عمل شتراوس، *حياة يسوع*)، ولا بدّ من تذكير القارئ غير المنحاز أنه يعتبر حتى اليوم الدليل الأقوى والأبرز على الأصل البشري للدين عموماً، وللمسيحية بشكل خاص، والذي قبله فإن كل مزاعم وادعاءات الدوغمائية تغوص في العدم].

الفقرة الأولى: إن الكينونة التي هي مختلفة عن الإنسان ومستقلة عنه، والتي هي في الوقت ذاته، مختلفة عن الإله ومستقلة عنه، كما تُقدّم في «جوهر *المسيحية*»، ـ الكينونة دون طبيعة بشرية، دون صفات بشرية ودون فردانية بشرية، هي في الواقع ليست غير *الطبيعة*.[2]

---

(1) مقولة هذه المقالة، أو على الأقل نقطة بدايتها، هو الدين، بقدر ما يكون غرضه هو الطبيعة، التي أجبرت على إهمالها في كتابي جوهر *المسيحية*، كون مركز المسيحية ليس الله *في الطبيعة*، بل الله *في الإنسان*. ـ [ملاحظة للمؤلف].

(2) الطبيعة، بحسب مفهومي، ليست غير كلمة عامة تطلق تلك الكينونات، الأشياء،

الفقرة الثانية: الشعور بالاتكالية عند الإنسان هو مصدر الدين؛ لكن غرض اتكاليته، أي، الذي يكون الإنسان ويشعر بذاته متكلة عليه، هو في الأصل ليس غير الطبيعة. فالطبيعة هي الغرض الأول الأصلي للدين، كما يبرهن على ذلك بشكل كافٍ تاريخ كل الأديان والأمم.

الفقرة الثالثة: التأكيد على أن الدين فطري وطبيعي للإنسان إنما هو زائف، إذا كان الدين متطابقاً مع الربوبية؛ لكنه حقيقي تماماً، حين يُعتبر الدين ليس غير ذلك الشعور بالاتكالية الذي يكون فيه الإنسان مدركاً تقريباً أنه لا يوجد ولا يستطيع أن يوجد دون كينونة أخرى، مختلفة عن ذاته، وأن وجوده لا ينشأ في ذاته. الدين، إذا ما فُهم هكذا، يكون ضرورياً للإنسان كالنور للعين، كالهواء للرئتين، كالطعام للمعدة. لكن، قبل كل شيء، الإنسان كينونة لا تتواجد دون نور، دون هواء، دون أرض، دون طعام - إنه، باختصار، كينونة تتكل على الطبيعة. هذه الاتكالية في الحيوان، وفي الإنسان طالما هو [الضمير هنا للعاقل - مترجم] يتحرّك في مجال البهيمي، هي فقط اتكالية غير واعية وغير مُفكّر بها؛ لكن مع تساميه [الضمير هنا لغير العاقل - مترجم] إلى الوعي والمخيلة، مع أخذه بعين الاعتبار والاعتراف به، يصبح ديناً. وهكذا فالحياة كلّها تعتمد على تغيّر الفصول؛ لكن الإنسان وحده يحتفل بهذا التغيّر عبر تمثيلات درامية وأفعال احتفالية. لكن احتفالات كهذه، التي لا تتضمن ولا تمثّل غير تغيّر الفصول، أو مراحل القمر هي الاعترافات الأقدم، الأولى، والحقيقية بالديانة البشرية.

والأغراض التي يميزها الإنسان عن ذاته ونتاجاته، والتي تشملها تحت الاسم العام «طبيعة»، لكنها ليست بأية حال *كينونة عامة*، خضعت لعملية تجريد عن الكينونة الحقيقية وفُصلت عنها، ومن ثم شُخّصت في وجود سرّاني.

الفقرة الرابعة: الإنسان أو أية أمة فردية أو قبيلة فردية في أخذها بعين الاعتبار في خصوصيتها، لا تعتمد على الطبيعة أو الأرض بشكل عام، بل على الموقع الخاص ـ ليس على الماء بشكل عام، بل على نوع خاص من الماء، الجدول، أو النبع. وهكذا فالمصري ليس مصرياً بلا مصر؛ الهندي ليس هندياً بلا الهند. لهذا السبب بالذات فإن تلك الأمم القديمة التي كانت مرتبطة بثبات بترابها الأصلي، وإن لم تحرز بعد مفهوم طبيعتها الحقيقية كأعضاء من الجنس البشري، لكنها متمسكة بفردانيتها وخصوصيتها كأمم وقبائل، كانت مبررة بشكل كامل في عبادتها جبالاً، أشجاراً، حيوانات، أنهاراً، ينابيع بلدانها الخاصة باعتبارها كينونات إلهية؛ لأن مجمل فردانيتهم ووجودهم كان قائماً حصرياً على خصوصية بلدهم وطبيعتهم ـ تماماً مثل أن من يعتبر الكون وطناً له، وأنه هو ذاته جزءاً منه، فإنه ينقل الشخصية الشمولية لكينونته إلى مفهومه للّه.

الفقرة الخامسة: إنها فكرة خيالية القائلة إن الإنسان كان عليه أن يمكّن نفسه فقط عبر «العناية الإلهية»، من خلال مساعدة كينونات «خارقة بشرياً»، مثل الآلهة، الأرواح، الجن والملائكة، ليرتفع بنفسه فوق حالة الحيوان. لقد صار الإنسان بالطبع ما لا يكونه من خلال نفسه وحدها؛ كان بحاجة إلى هذه المساعدة من الكينونات الأخرى. لكن هذه لم تكن مخلوقات للمخيلة خارقة للطبيعة، بل كينونات حقيقية، طبيعية ـ ليست كينونات تقف فوق ذاته، بل تحتها، لأن كلّ ما يساعد الإنسان عموماً في أفعاله الواعية والإرادية، ما يدعى على العموم وبشكل بارز بشرياً، كلّ عطية وموهبة خيرتين، لا تأتي من فوق، بل من تحت؛ ليس من الأعلى بل أعمق أعماق الطبيعة. تلك الكينونات المساعدة، أولئك الجن الحافظون،

هم بشكل خاص الحيوانات. وهكذا فنحن نقرأ في كتاب الزند أفستا، بل حتى في القسم الأقدم منه والأكثر أصالة بالذات، «من خلال ذكاء الكلب يتم دعم العالم. فلو أنه لم يحم العالم، لسرق اللصوص والذئاب كل الأملاك». إن أهمية الحيوان بالنسبة للإنسان، خاصة في أزمنة الحضارة البدائية، تبرّر بالكامل التأليه الديني الذي كان يُنظر به إليها. كانت الحيوانات ضرورية ولا غنى عنها للإنسان؛ فقد اعتمد وجوده عليها ـ لكن إن ما تعتمد عليه حياته ووجوده، ذلك هو إلهه. حين لا يعود المسيحي يعبد الطبيعة بوصفها إلهاً، فالأمر فقط لأنه في اعتقاده لا يعتمد وجوده على الطبيعة، بل على إرادة كينونة مختلفة عن الطبيعة؛ لكنه يظل يعتبر ويعبد هذه الكينونة بوصفها كينونة إلهية، أي، سامية، فقط لأنه ينظر إليها على أنها المؤلف والحافظ لوجوده وحياته. وهكذا فعبادة الإله إنما تعتمد على عبادة ـ الذات عند الإنسان، وهي ليست غير مظهر للأخيرة؛ لأنه على افتراض أني كنت سأحتقر ذاتي وحياتي ـ والإنسان أصلاً وعلى نحو اعتيادي لا يجعل أي تمايز بين ذاته وحياته ـ كيف كنت سأمتدح وأعبد ذلك الذي تعتمد عليه حياة تبعث على الشفقة والاحتقار؟ إن القيمة التي أعزوها على نحو واع لمصدر الحياة تعكس من ثم فقط القيمة التي أعزوها على نحو غير واع للحياة ولذاتي. ونتيجة لذلك فكلما ارتفعت قيمة الحياة، كلما ارتفعت قيمة وكرامة أولئك الذين يعطون الحياة، أي، الآلهة. كيف كان باستطاعة الآلهة ربما أن تتألق بالذهب والفضة، لو لم يعرف الإنسان قيمة واستخدام الذهب والفضة؟ ما هو الفرق بين تمامية الحياة وعشقها عند الإغريق وكآبة الحياة واحتقارها عند الهندوس ـ لكن في الوقت ذاته أي فرق هو بين الميثولوجيا الإغريقية والهندوسية، بين الأب الأوليمبي

للآلهة وللبشر والأبوسوم أو الأفعى ذات الأجراس الهندية الضخمة!

الفقرة السادسة: يستمتع المسيحي بالحياة بالقدر ذاته تماماً الذي يستمتع به الوثني، لكنه يرسل صلوات شكره على استماعه بالحياة عالياً إلى الآب في السماء: إنه يتهم الوثني بعبادة الأوثان للسبب بالذات أنهم يقصرون عبادتهم على المخلوق ولا يرتفعون إلى العلة الأولى بوصفها العلة الوحيدة الحقيقية لكل المنافع. لكن هل أدين بوجودي لآدم، الإنسان الأول؟ هل أنا أوقره باعتباره أبي؟ لماذا لا يكون علي أن أقف عند المخلوق؟ ألست أنا ذاتي مخلوقاً؟ أليست العلة الأقرب بالذات التي هي محددة وفردية على نحو متساوٍ مع ذاتي، العلة الأخيرة بالنسبة لي، التي أنا ذاتي غير بعيد عنها، كما أنا ذاتي أكون كينونة محددة وفردية؟ أليست فردانيتي، غير القابلة للفصل وغير القابلة للتمييز كما هي عن ذاتي ووجودي، تعتمد على فردانية والديّ؟ ألست أنا، حين أذهب بعيداً إلى الوراء، أفقد في الأخير كل آثار لوجودي؟ ألم أولد وحُبِل بي في السنة ذاتها، في الساعة ذاتها، بالمزاج ذاته، باختصار في ظل الظروف الداخلية والخارجية كأخي؟ أليس أصلي نتيجة لذلك هو من منظور فردي أصل لي تماماً مثلما أن حياتي دونما تناقض هي حياتي أنا؟ هل علي أن أمدّد حبي وتوقيري كابن حتى آدم؟ لا، فأنا مخوّل تماماً أن أوقف توقيري الديني عند تلك الأشياء الأقرب إلي، أي، والديّ، بوصفهما علّة وجودي.

الفقرة السابعة: السلسلة غير المنقطعة من العلل أو الأغراض المتناهية، كما تدعى، التي كانت قد حُدّدت من قبل الملحدين القدامى على أنها سلسلة لا متناهية ومن قبل الربوبيين على أنها سلسلة متناهية، تتواجد فقط في أفكار الإنسان ومخيلته، مثل الزمن، الذي تعقب فيه لحظة الأخرى دون

انقطاع أو تمايز. وفي واقع الأمر فإن الرتابة المملة لهذه السلسلة السببية إنما هي منقطعة ومقضي عليها من قبل فارق الأغراض وفردانيتها، وهي الفرديّة التي تسبّب أن يظهر كل واحد بذاته جديداً، مستقلاً، مفرداً، نهائياً، ومطلقاً. وحتماً فالماء، الذي هو في مفهوم الدين الطبيعي كينونة إلهية، هو من ناحية مركّب، يعتمد على الهيدروجين والأكسجين، لكنه في الوقت ذاته شيء جديد، يجب أن يُقارن مع ذاته فقط، والأصل، حيث صفات عنصريه المكونين، بحد ذاتها، قد اختفت ودمّرت. وحتماً فإن ضوء القمر، الذي عبده الوثني في بساطته الدينية، بوصفه ضوءاً مستقلاً، مشتقاً من نور الشمس الآني، لكنه في الوقت ذاته، مختلف عن الأخير، الضوء الخاص بالقمر، متبدلاً ومعدّلاً بمقاومة القمر، إنما هو نتيجة لذلك الضوء الذي لم يكن باستطاعته أن يوجد دون القمر، والذي خصوصيته تمتلك مصدرها فيه ليس إلا. وحتماً فالكلب، الذي يخاطبه الفارسي في صلواته على أنه كينونة مفيدة ومن ثم إلهية بسبب يقظته، استعداده للالتزام وأمانته، هو أحد مخلوقات الطبيعة، التي لا تكون ما تكونه من خلال ذاتها؛ لكن مع ذلك فإنه فقط الكلب ذاته، هذه الكينونة الخاصة لا غيرها، هو الذي يمتلك تلك الصفات التي تستدعي توقيري. هل علي الآن في إقراري بهذه الصفات أن أنظر إلى العلة الأولى والعامة وأدير ظهري إلى الكلب؟ لكن العلة العامة لا تمييز فيها فهي علّة الكلب الصديق بالقدر ذاته تماماً كما هي علّة الذئب العدو، الذي أنا مضطر للقضاء على وجوده، على الرغم من العلة العامة، إذا كان علي أن أدعم الحق الأفضل لوجودي الخاص.

الفقرة الثامنة: الكينونة الإلهية التي يُكشف عنها في الطبيعة، ليست سوى الطبيعة ذاتها، مكشوفاً عنها وممثلة لذاتها بقوة لا تُقاوم ككينونة

إلهية. لقد عبد المكسيكيون القدامى ضمن آلهتهم العديدة إلهاً (أو بالأحرى إلهة) للملح. إن إله الملح هذا يمكن أن يكشف لنا في مثال لافت عن إله الطبيعة عموماً. إن الملح (الملح الصخري) يمثّل في آثاره الاقتصادية، الطبية، وغيرها من الآثار، فائدة الطبيعة ومنفعتها، الممتدحة للغاية من قبل الربوبيين؛ في أثره على العين، في ألوانه، بريقه وشفافيته، جماله؛ بنيانه وتركيبه الكريستالي، تناغمه ونظاميته؛ في تركيبه من عناصر متناقضة، تركيب عناصر الطبيعة المتضادة ضمن مجمل كلي ـ تركيب اعتبره الربوبيون دائماً دليلاً لا يمكن الاعتراض عليه على وجود حاكم للطبيعة، مختلف عنها، لأنهم بسبب جهلهم للطبيعة لم يعرفوا أن العناصر والأشياء المتعارضة هي الأكثر ميلاً لأن يجذب أحدها الآخر لتضم في كليّة جديدة. لكن ما هو الآن إله الملح؟ ذلك الإله الذي مجاله، وجوده، ظهوره، آثاره وصفاته محتواة في الملح؟ لا شيء سوى الملح ذاته الذي يظهر للإنسان بسبب صفاته وآثاره على أنه كينونة إلهية، أي، كينونة مفيدة، عظيمة، جديرة بالمدح والإعجاب. وهوميروس على نحو واضح يسمّي الملح إلهياً. وهكذا، كما أن إله الملح مجرّد انطباع وتعبير عن إلهة أو ألوهية الملح، كذلك أيضاً فإن إله العالم أو الطبيعة بشكل عام، هو مجرّد الانطباع أو التعبير عن ألوهية الطبيعة.

الفقرة التاسعة: الاعتقاد أنه في الطبيعة تُظهر كينونة أخرى، متمايزة عن الطبيعة ذاتها، أو أن الطبيعة تُملأ وتُحكم من كينونة مختلفة عنها ذاتها، إنما هو متطابق مع الاعتقاد بأن الأرواح، الشياطين، الأبالسة، إلخ، كشفت عن ذواتها من خلال الإنسان، على الأقل في حالة معينة، وأنها تستحوذ عليه؛ وهو في الحقيقة بالذات الاعتقاد، بأن الطبيعة مستحوذ عليها من

قبل كينونة غريبة، روحانية. لكن في الواقع الطبيعة، مصوّرة في ضوء هكذا اعتقاد، مستحوذ عليها فعلياً من قبل روح، لكن هذه الروح هي روح الإنسان، مخيلته، نَفْسه، التي تحول ذاتها على نحو غير طوعي إلى طبيعة وتجعل منها رمزاً ومرآة لكينونته.

الفقرة العاشرة: الطبيعة ليست الغرض الأول والأصلي فحسب، بل هي أيضاً *المصدر المستمر، الخلفية المتواصلة، رغم أنها مخفية، للدين*. الاعتقاد بأن الإله، حتى حين يتم تصوره ككينونة خارقة للطبيعة، مختلفة عن الطبيعة، غرض يتواجد خارج الإنسان، كينونة موضوعية، كما يدعوه الفلاسفة؛ لهذا الاعتقاد مصدره الأوحد في الحقيقة، بأن الكينونة الموضوعية، التي تتواجد فعلياً خارج الإنسان، أي، العالم أو الطبيعة، هي في الأصل الإله. وجود الطبيعة لا يقوم على وجود الإله، كما تتخيّل الربوبية، بل *العكس*، وجود الإله، أو بالأحرى الاعتقاد بوجوده، يقوم فقط على وجود الطبيعة. أنت مجبر على تخيّل الإله ككينونة موجودة، فقط لأنك مجبر من قبل الطبيعة ذاتها على أن تفترض ـ مسبقاً وجود الطبيعة بوصفها العلة والشرط لوجودك ووعيك، والفكرة الأولى بالذات المرتبطة مع فكرة الإله ليست غير الفكرة بالذات بأنه الوجود الذي سبق وجودك الخاص وافترضه مسبقاً. أو، الاعتقاد أن الإله يتواجد بالمطلق خارج نَفْس الإنسان وعقله، دون اهتمام ما إذا كان الإنسان يتواجد أم لا، ما إذا كان يُتأمل به أم لا، ما إذا كان يرغب به أم لا ـ هذا الاعتقاد أو بالأحرى غرضه، لا يعكس شيئاً على مخيلتك سوى الطبيعة، التي لا يقوم وجودها على وجود الإنسان، وأقل من ذلك بكثير على فعل العقل والمخيلة البشريين. نتيجة لذلك، حين يجد اللاهوتيون، العقلانيون منهم بشكل خاص، شرف

الإله على نحو بارز في امتلاكه لوجود مستقل عن أفكار الإنسان، يمكنهم أن يعتبروا أن شرف مثل هكذا وجود يجب أن يُعزا أيضاً إلى آلهة الوثنية العمياء، إلى النجوم، الحجارة والحيوانات، وأنه في هذا الصدد فإن وجود إلههم لا يختلف عن وجود المصري أبيس.

هذه الصفات التي تتضمّن وتعبّر عن *الفارق* بين الكينونة الإلهية والكينونة البشرية أو على الأقل الفرد البشري، هي أصلياً وضمنياً صفات *للطبيعة* فقط. الإله هو الكينونة الأقوى، أو بالأحرى *القدير*، أي، يمكنه أن يفعل ما لا يقدر الإنسان أن يفعله، ما يفوق قواه على نحو غير محدود، وما يلهمه نتيجة لذلك بشعور التواضع لمحدوديته، ضعفه وعدميته. يقول الإله لأيوب، «أأنت تشد عقد الثريا أم أنت تحل حبال الجوزاء؟ أترسل البروق فتنطق وتقول: «لبيك»[سفر أيوب 38:31 ـ مترجم].. أأنت الذي يعطي الفرس قوة [أيوب 39:19 ـ مترجم]؛ أبفطنتك يطير البازي؛ [أيوب 39:26 ـ مترجم] ألك ذراع مثل اللّه؛ أترعد بمثل صوته؟ [سفر أيوب 40:9 ـ مترجم]». لا، ذلك لا يمكن للإنسان فعله، ومع الرعد لا يمكن مقارنة صوت الإنسان. لكن أية قوة تظهر في صوت الرعد، في قوة الحصان، في طيران البازي، في المسار الذي لا يستريح للجوزاء؟ *قوة الطبيعة*.

الفقرة الحادية عشرة: الإله كينونة خالدة. لكن في الكتاب المقدّس نقرأ: «جيل يمضي وجيل يأتي والأرض قائمة أبد الدهور» [سفر الجامعة 1:4 ـ مترجم]. في أسفار الزند أفستا، تدعى الشمس والقمر على نحو صريح «*بالخالدين*» بسبب دوامهما. وقد قال أحد الإنكا من البيرو لزاهب دومنيكاني، «أنت تعبد إلهاً مات على الصليب، لكني أعبد الشمس التي لا تموت أبداً».

الإله هو الكينونة *اللطيفة*، «لأنه يطلع شمسه على الأخيار والأشرار، وينزل المطر على الأبرار والفجّار» [متى 45:5 ـ مترجم]؛ لكن تلك الكينونة التي لا تميّز بين الأخيار والأشرار، بين الأبرار والفجّار، التي توزع متع الحياة ليس بحسب المزايا الأخلاقية؛ التي تترك انطباعها بشكل عام على الإنسان ككينونة لطيفة، بسبب آثارها، كما على سبيل المثال نور الشمس المنعش وماء المطر هي مصادر الأحاسيس الأكثر إفادة: تلك الكينونة هي الطبيعة.

الإله هو الكينونة التي *تشمل كلّ شيء*، *الكونية*، *التي لا يمكن تحديدها*؛ لكنه أيضاً هو *ذاته* الشمس التي تشرق على كل البشر والكينونات على الأرض؛ وهو *ذاته* السماء التي تحتويهم جميعاً؛ وهو *ذاته* الأرض التي تحملهم جميعاً. يقول أمبروسيوس، «أن هنالك إلهاً واحداً، إنما هو مبرهن من قبل طبيعة عامة: لأنه هنالك عالم *واحد* فقط»، وقول بلوتارخ، «تماماً كما أن الشمس، السماء، القمر، والأرض والبحر مشتركة للجميع، مع أنها تُدعى بشكل مختلف من قبل كل واحد، كذلك توجد أيضاً روح واحدة، التي تحكم الكون، لكنها تمتلك أسماء مختلفة وتُعبد بطرق مختلفة».

الإله «لا يسكن في بيوت صنعتها الأيدي» [سفر الأعمال 48:7 ـ مترجم]، وكذلك الطبيعة. لكن من يستطيع أن يطوّق النور، السماء، البحر، ضمن حدود بشرية؟ لقد عبد الفرس والجرمان القدماء الطبيعة فحسب، لكن لم يكن لديهم معابد. يجد عابد الطبيعة قاعات المعبد أو الكنيسة المصطنعة، المُقاسة جيداً ضيقة للغاية، خانقة للغاية؛ إنه لا يشعر بالراحة إلا تحت السماء العالية، التي لا حدود لها، التي تظهر لتأمل حواسه.

الإله هو تلك الكينونة التي لا يمكن تحديدها بمقياس بشري، كينونة

عظيمة، لا تُقاس، غير متناهية؛ لكنه يكون مثل تلك الكينونة لأن عمله، الكون، عظيم، لا يُقاس، غير متناه، أو على الأقل، يظهر على أنه هكذا. العالم يمتدح سيده: لعظمة الخالق التي أصلها فقط في عظمة نتاجه. «كم هي عظيمة الشمس، لكن كم هو أعظم من صنعها؟».

الإله هو كينونة ما فوق أرضية، ما فوق بشرية، فائقة، لكن حتى هذه الكينونة الفائقة فهي في أصلها وأساسها ليست غير الكينونة الأعلى في الفضاء، إذا ما أخذت بعين الاعتبار بصرياً: السماء بظواهرها اللامعة. كل الأديان التي لها بعض من مخيلة تنقل آلهتها إلى منطقة الغيوم، إلى أثير الشمس، القمر، والنجوم: *كل الآلهة ضائعة أخيراً في البخار الأزرق للسماء*. حتى الإله الروحاني للمسيحية فإنه يجعل مقعده، أساسه فوق في السماء.

الإله كينونة *غامضة*، *غير قابلة للتصوّر*، لكن فقط لأن الطبيعة بالنسبة للإنسان، خاصة الإنسان المتدين، هي كينونة *غامضة غير قابلة للتصوّر*. يقول الإله لأيوب، «أتعلم موازنة الغيوم؟ [سفر أيوب 16:37 ـ مترجم]. هل وصلت إلى ينابيع البحر؟ [سفر أيوب 16:38 ـ مترجم] «هل أحطت بعرض الأرض؟ [سفر أيوب 18:38 ـ مترجم] أم عاينت مخازن البَرَد؟» [سفر أيوب 22:38 ـ مترجم].

أخيراً، الإله هو تلك الكينونة التي هي مستقلة عن الإرادة البشرية، لا تحركها الرغبات والعواطف البشرية، مساوية لذاتها على الدوام، تحكم وفقاً لقوانين لا تتبدّل، موطداً أعرافه على نحو غير قابل للتبدّل على طول الزمن. لكن هذه الكينونة من جديد ليست سوى الطبيعة، التي تبقى هي ذاتها في كل التغييرات، لا تظهر أبداً تذبذبات حاكم استبدادي، متصلب،

لكنها خاضعة في كل إظهاراتها لقوانين غير قابلة للتغيير: طبيعة غافلة، لا ترحم[1].

الفقرة الثانية عشرة: مع أن الإله، كمؤلّف للطبيعة، يتم تصوّره وتمثيله ككينونة مختلفة عن الطبيعة، مع ذلك فإن يُتضمّن ما يُعبّر به بهذه الكينونة، *محتوياتها الحقيقية*، ليست سوى الطبيعة. نقرأ في الكتاب المقدّس، «من ثمارهم تعرفونهم» [متى 16:7 ـ مترجم]، ويشير الرسول بولس صراحة إلى العالم باعتباره العمل الذي يمكن فيه أن نفهم وجود الإله وكينونته، لأن ما ينتجه المرء، فذلك ما يحتوي كينونته ويظهر ما هو قادر على فعله. ما لدينا في الطبيعة، فذلك ما لدينا في الإله، فقط متخيلاً *بوصفه مؤلّف وعلّة الطبيعة* ـ نتيجة لذلك ليس كينونة أخلاقية وروحانية، بل طبيعية، مادية. إن عبادة مؤسسة فقط على الإله باعتباره مؤلّف الطبيعة، دون أن تعزو له أية صفات أخرى، مشتقة من الإنسان، ودون أن يتم تخيله على أنه سياسي وأخلاقي، أي، مشرّع بشري ـ عبادة كهذه كانت ستبدو مجرّد عبادة للطبيعة. والحقيقة أنه يُعتقد أن مؤلّف الطبيعة إنما هو قد مُنح العقل والإرادة؛ لكن ما ترغب به إرادته، ما يفكّر به عقله، هو فقط ما لا يتطلّب إرادة ولا عقلاً، بل فقط قوى وحوافز آلية، مادية، نباتية وحيوانية.

الفقرة الثالثة عشرة: بالقدر القليل الذي يكون فيه تشكّل الطفل في

(1) كل هذه الصفات التي هي تُشتق أصلًا من تأمل الطبيعة ليس إلا، تصبح في أوقات لاحقة صفات تجريدية، ميتافيزيقية، تماماً كما تصبح الطبيعة ذاتها تجريداً أو خليقة للعقل البشري. وبناء على هذا المنظور اللاحق، حيث ينسى الإنسان أصل اللهّ في الطبيعة، حين لا يعود اللهّ غرضاً للحواس، بل كينونة متخيلة، يمكن لنا القول: اللهّ دون صفات بشرية، الذي يجب أن يتمايز عن الإله البشري الصحيح، ليس غير جوهر العقل. بل لاحظ العلاقة بين هذا العمل وعمليّ السابقين، *لوثر وجوهر المسيحية*.

الرحم، نبضات القلب، الهضم والوظائف العضوية الأخرى نتائج للعقل والإرادة، فالطبيعة بالقدر القليل ذاته على نحو عام هي أثر أو نتاج كينونة روحانية، أي، كينونة تريد وتعرف أو تفكّر. إذا كانت الطبيعة في الأصل نتاجاً لذهن، ومن ثم إظهاراً لذهن، عندئذٍ أيضاً فالظواهر الطبيعية للزمن الحالي كانت ستبدو آثاراً وإظهارات روحانية. فبداية خارقة للطبيعة تتطلب بالضرورة تواصلية خارقة للطبيعة. لأن الإنسان يظن أن العقل والإرادة هما العلة للطبيعة فقط حيثما الآثار تتحدّى إرادته وتتجاوز عقله، فقط حيثما يفسّر الأشياء من خلال التناظرات والأسباب البشرية، حيث لا يعرف شيئاً عن العلل الطبيعية، ونتيجة لذلك يشتق الظواهر الخاصة والحاضرة من الإله ـ من أرواح تابعة. لكن حين لا تعود نقطة ارتكاز الأرض والنجوم اليوم الكلمة القديرة للإله، وحافز حركتها ليس روحانياً أو ملائكياً بل ميكانيكي: فالعلة الأولى عندئذٍ هي بالضرورة أيضاً علّة ميكانيكية، أو، بشكل عام، طبيعية. أن نشتق الطبيعة من العقل والإرادة، أو بشكل عام من الذهن، هو أن نخطط دون اعتبار للعناصر الضرورية، هو *أن نُخرج مخلّص العالم من عذراء دون تعاون من رجل، من خلال الروح القدس* ـ هو أن *نحوّل الماء إلى خمر* ـ هو أن نهدّئ العواصف *بالكلمات*، هو أن ننقل الجبال *بالكلمات*، هو أن نستعيد البصر للأعمى *بالكلمات*. أي ضعف وضيق أفق يغرران بالتخلّص من العلل الثانوية للخرافة، مثل المعجزات، الشياطين، الأرواح، الخ.، في تفسير ظواهر الطبيعة، لكن أن نترك دون مس العلة الأولى للخرافة!

الفقرة الرابعة عشرة: يؤكّد كثير من الكتّاب الكنسيين القدامى، أن ابن اللّه ليس نتاج إرادة اللّه، بل طبيعة اللّه؛ أن نتاج الطبيعة أقدم من نتاج

الإرادة، وأن فعل الإنجاب، نتيجة لذلك، كفعل للطبيعة، يسبق فعل الخلق كفعل للإرادة. وهكذا فإن الاعتراف بالطبيعة وقوانينها كلّية القدرة يسود حتى ضمن مجال الاعتقاد بالإله الخارق للطبيعة، مع أنه في التناقض الأوضح لإرادته وكينونته الخاصتين. إن فعل الإنجاب يفترض مسبقاً فعل الإرادة؛ فعالية الطبيعة تُعتبر بأنها سابقة على فعالية الفكر والإرادة. لا بدّ أن الطبيعة تتواجد بالضرورة قبل تواجد أي شيء يميّز ذاته عن الطبيعة، والذي يموضع الطبيعة، كغرض لفعل التفكير والإرادة، في مواجهة ذاته. وتقودنا الطريقة الحقيقية للفلسفة من رغبة الذكاء إلى العقل؛ لكن الطريق المباشرة إلى المصح العقلي للاهوت، تذهب من العقل إلى الرغبة بالعقل. أن نضع العقل ليس فوق الطبيعة، بل، العكس، الطبيعة فوق العقل، هو ذاته أن نضع الرأس، ليس فوق الجوف، بل الأخير على الأول. كلّ درجة أعلى من التطوّر تتطلب مسبقاً الدرجة الأدنى، وليس العكس،[1] للسبب البسيط، أن الدرجة الأعلى لا بدّ أن يكون شيء *تحتها*، حتى تكون الدرجة الأعلى. وكلما تقف كينونة على نحو أعلى وكلما تكون قيمتها أو كرامتها أعظم، كلما تفترض مسبقاً أكثر. لهذا السبب بالذات فإنه ليس الكينونة الأولى، بل الكينونة الأحدث، الأخيرة، الأكثر اتكالية، الأكثر احتياجاً، الأكثر تأملية هي الكينونة الأعلى، تماماً مثل تاريخ تشكّل الأرض، ليست الأعمال الأقدم والأولى، مثل الأردواز والغرانيت، بل النتاجات الأخيرة والأكثر حداثة، مثل البازلت ومقذوفات البراكين الكثيفة، هي الأثقل والأوزن. إن كينونة لديها شرف أن تفترض لا شيء، لديها أيضاً شرف أن تكون لا شيء. لكن الحقيقة أن المسيحيين يفهمون جيداً فن صنع شيء من لا شيء.

(1) قد يكون هذا حقيقياً بالمعنى المنطقي، لكن أبداً بقدر ما يتعلّق الأمر بالتكوين الحقيقي.

الفقرة الخامسة عشرة: «كلّ الأشياء تأتي من اللّه وتعتمد عليه». ـ هكذا يقول المسيحي بالتناغم مع إيمانه الإلهي ـ «لكن» يضيف مباشرة بعقله اللاإلهي، «*بشكل غير مباشر فحسب*». اللّه هو فقط العلّة الأولى التي يأتي بعدها جيش غير متناه من الآلهة التابعة، حشد من العلل التوسطية. لكن العلل التوسطية، كما تُدعى، هي العلل الوحيدة الحقيقية والفاعلة، العلل الوحيدة الموضوعية والمحسوسة. إن الإله الذي لم يعد يرمي الإنسان بأسهم أبولو، الذي لم يعد يثير النفس برعد جوبيتر وبرقه، الذي لم يعد يهدّد الآثم بالمذنبات والظواهر النارية الأخرى، الذي لم يعد بيده العليا يجذب الحديد إلى حجر المغناطيس، يحد المدّ والجزر، ويحمي القارة من القوة التي لا تحتمل للمياه التي تهدّد دائماً بطوفان آخر ـ باختصار، إله مطرود من إمبراطورية العلل التوسطية هو فقط علة بالاسم، خليقة للمخيلة غير مؤذية ومتواضعة للغاية ـ مجرّد فرضية بهدف حلّ معضلة نظرية، لتفسير بداية الطبيعة أو بالأحرى الحياة العضوية. من أجل افتراض كينونة مختلفة عن الطبيعة، بغرض تفسير وجودها، فالأمر يمتلك أصله فقط في استحالة ـ مع أن هذه نسبية وذاتية فحسب ـ تفسير الحياة العضوية وبشكل خاص البشرية من الطبيعة، بقدر ما يجعل الربوبي *عدم قدرته على تفسير* الحياة من خلال الطبيعة، *عدم قدرة الطبيعة على إنتاج* الحياة من ذاتها، ومن ثم يمدّد *حدود عقله إلى حدود الطبيعة*.

الفقرة السادسة عشرة: الخلق والحفظ غير قابلين للانفصال. نتيجة لذلك، حين تكون كينونة مختلفة عن الطبيعة ـ إله ـ خالقنا، فهو أيضاً حافظنا، وليس قوة الهواء، الحرارة، الماء أو الخبز، بل *قوة اللّه تدعمنا وتحفظنا*. «فيه نحيا ونتحرك ونمتلك كينونتنا». يقول لوثر، «ليس الخبز،

بل *كلمة اللّه تغذّي أيضاً الجسد* بشكل طبيعي، حيث أنها تخلق وتحفظ كلّ شيء». «لأنها تتواجد، فهو (اللّه) يتغذّى *بوساطتها وتحتها*، وهكذا فنحن لا نراها، ونعتقد أن الخبز يعملها. لكن حيثما لا تتواجد، فهو يتغذّى دون الخبز، عبر كلمته فحسب، كما يفعل بواسطة الخبز». باختصار، كل المخلوقات هي أقنعة ومومياءات للّه التي يسمح لها أن تساعده في كل صنف من العمل يستطيعه بطريقة أخرى، وينجزه فعلياً دون مساعدتهم».
لكن حين يكون اللّه، بدلاً من الطبيعة، حافظنا، تكون الطبيعة مجرّد *قناع* للألوهة، كينونة سطحية ومتخيلة، تماماً بالعكس، يكون اللّه كينونة سطحية ومتخيلة حين تحفظنا الطبيعة. لكن من الواضح الآن ومن غير المنكر أننا ندين بحفظنا فقط إلى التأثيرات، الصفات والقوى الخاصة لكينونات طبيعية، نتيجة لذلك فنحن لسنا مخولين فقط، بل مجبرون، على الاستنتاج أننا ندين بأصلنا أيضاً إلى الطبيعة. نحن موضوعون على نحو صحيح وسط الطبيعة، فهل على بدايتنا، أصلنا، أن يقبع خارج الطبيعة؟ نحن نعيش ضمن الطبيعة، مع الطبيعة، بالطبيعة، فهل سنظل لا نكون منها؟ يا للتناقض!

الفقرة السابعة عشرة: لم تكن الأرض دائماً في حالتها الحاضرة؛ بالعكس، فقد وصلت إلى وضعها الفعلي عبر سلسلة من التطورات والثورات، وقد كشفت الجيولوجيا عن أنه في المراحل المختلفة لتطورها فإن أنواعاً عديدة من النباتات والحيوانات كانت موجودة، والتي لم تعد تتواجد ولا حتى تواجدت منذ عصور. وهكذا، على سبيل المثال، لم يعد يتواجد أي مفصليات ثلاثية الفصوص Trilobites، أو أي إنسينيتس Encinites أو الأمونيت Ammonites أو تيروداكتيلوس Ptrodactyles

أو أكتيوصور Ichthyosauri، أو بليزوصورات Plesiosauri، أو البهضم Magatheria أو دينوثيريم Dinotheria، إلخ. ولمَ لا؟ على ما يبدو أن شرط وجودها لم يعد موجوداً. لكن حين تتزامن نهاية أي حياة مع نهاية شروطها، عندئذٍ فإن بداية، أصل حياة كهذه يتزامن مع أصل شروطها. بل حيثما نباتات هذه الأيام، على الأقل تلك التي تنظيماتها أعلى، تأتي إلى الحياة بالتكاثر العضوي، يمكن أن تُرى ـ بطريقة ملحوظة للغاية، لكنها غير قابلة للتفسير ـ وكأنها تبدو بتعددية لا حصر لها حالما يتم تقديم الشروط الخاصة بحياتها. نتيجة لذلك، لا يمكن التفكير بأصل الحياة العضوية كفعل *معزول*، كفعل بعد أصل شروط الحياة، بل بالأحرى كفعل به ولحظة فيها الحرارة، الهواء، الماء، الأرض بشكل عام، تلقفت مثل هذه الصفات، والأوكسجين، الهيدروجين، الكربون، النيتروجين دخلت في تلك التركيبات التي كانت ضرورية من أجل وجود حياة عضوية ـ يجب أن تُعتبر هذه اللحظة أيضاً على أنها اللحظة حين اتحدت هذه العناصر لتشكيل أجسام عضوية. نتيجة لذلك، إذا كانت الأرض، بفضل طبيعتها الخاصة، طورت نفسها في مسار الزمن وثقفتها إلى تلك الدرجة بحيث تبنت شخصية موافقة لوجود الإنسان ومناسبة لطبيعة الإنسان، أو إذا جاز القول، شخصية *بشرية*: يمكنها عندها أن تنتج إنساناً بقوتها الخاصة.

الفقرة الثامنة عشرة: إن قوة الطبيعة ليست غير محدودة كقوة اللّه، أي، قوة المخيلة البشرية؛ إنها لا تستطيع فعل كلّ شيء في كل الأوقات وفي ظل كلّ الظروف ـ نتاجاتها وآثارها على العكس تعتمد على الظروف. نتيجة لذلك، حين لا تستطيع الطبيعة أن تنتج أو لا تنتج أية أجسام عضوية عبر *التباعد الوراثي* ***genetratio æquivoca***، فهذا ليس دليلاً على أنها

لم تستطع أن تفعل ذلك في أزمنة سابقة. إن الشخصية الحالية للأرض هي الثبات؛ فزمن الثورات قد ولّى، والأرض أنهت الاحتدام. البراكين ليست غير رؤوس مضطربة مفردة التي لا تأثير لها على الحشود، والتي لا تبعث على الاضطراب نتيجة لذلك في منظومة الأشياء القائمة. وحتى الحدث البركاني الأعظم في ذاكرة الإنسان، أي، ثوران خورويو Jorullo في المكسيك، فهو لم يكن غير ثورة محليّة. لكن كما يكشف الإنسان في الأوقات الاستثنائية عن قوى استثنائية، أو كما يمكنه أن يفعل فقط في أوقات ذروة الابتهاج والانفعال ما هو مستحيل عليه في أوقات أخرى، وكما أن النبات فقط في حقب بعينها، حقبة التبرعم، الإزهار والتلقيح ينتج حرارة ويستهلك الكربون والهيدروجين، ومن ثم يُظهر *وظيفة حيوانية*، التي هي على نحو مباشر تتناقض مع وظائفه النباتية العادية؛ كذلك أيضاً فالأرض فقط في أوقات ثوراتها الجيولوجية، كانت كل قواها وعناصرها في أعلى حالة تخمّر، فوران وتوتر، طوّرت قوتها في إنتاج الحيوانات. نحن نعرف الطبيعة فقط في حالتها الراهنة؛ كيف باستطاعتنا إذاً أن نستنتج أن ما لا يحصل الآن من قبل الطبيعة، لم يكن ليحصل البتة ـ حتى في أوقات مختلفة بالكامل، في ظل ظروف مختلفة بالكامل؟[1]

---

(1) من البديهي أنني لا أنوي التخلص في نهاية المطاف عبر هذه الكلمات القليلة من المعضلة العظيمة حول أصل الحياة العضوية؛ لكنها تكفي لحجتي، حيث أنني أقدم هنا فقط الدليل غير المباشر على أن الحياة لا يمكنها امتلاك مصدر آخر غير الطبيعة. أما فيما يتعلق بالدليل المباشر من العلم الطبيعي، فنحن ما نزال بعيدين عن الغاية، لكن بالمقارنة مع الأزمنة السابقة ـ خاصة بالنظر إلى التماثل المثبت مؤخراً بين الظواهر العضوية والظواهر اللاعضوية ـ فقد قطعنا على الأقل شوطاً كافياً كي نكون قادرين على تخيّل الأصل الطبيعي للحياة، مع أن طريقة هذا الأصل غير معروفة بالنسبة لنا بعد، أو حتى أنها لن تُكشف لنا أبداً.

الفقرة التاسعة عشرة: لم يكن المسيحيون قادرين بما يكفي من القوة للتعبير عن دهشتهم من أن الوثنيين عبدوا كينونات مخلوقة باعتبارها كينونات إلهية، لكن ربما أنهم أعجبوا بهم بالأحرى بسبب ذلك، لأن عبادة كهذه كانت تقوم على تأمل حقيقي تماماً للطبيعة. أن تكون مُنتجاً، أن تأتي إلى الحياة، هو ليس غير أن تكون فردياً. كل الكينونات الفردية مُنتَجَة، لكن العناصر أو الكينونات الأساسية العامة للطبيعة التي لا تمتلك فردانية ليست مُنتَجَة. المادة غير مُنتَجَة. لكن كينونة فردية لها سمة أعلى، أكثر إلهية من تلك التي بلا فردانية. الحقيقة أن الولادة شائنة والموت مؤلم، لكن من لا يرغب أن يبدأ وينتهي يمكنه أن يستقيل من صنف كينونة حية. الخلود يستبعد الحياة، والحياة تستبعد الخلود. وحتماً فإن الفرد يفترض مسبقاً كينونة أخرى والتي تنتجه؛ لكن الخيرة لا تقف فوق نتاجها، إنها تقف تحته. الحقيقة أن الكينونة المنتِجَة هي علة الوجود وفي ذاك الصدد الكينونة الأولى؛ مع ذلك فهي في الوقت ذاته مجرّد الوسيلة والمادة؛ الأساس لوجود كينونة أخرى، ومن ثم كينونة خاضعة. الطفل يستهلك الأم، يتخلّص من قوتها وجوهرها لصالحه، يلون خديه بدمها. والطفل هو فخار الأم؛ فهي تضعه فوق ذاتها، تخضع وجودها ورفاهها لوجود ورفاه الطفل؛ حتى الحيوان الأم فإنها تضحي بحياتها الخاصة لحياة صغارها. إن الخزي الأعمق لأية كينونة هو الموت، لكن مصدر الموت هو فعل الإنجاب. أن تنجب يعني أن يرمي المرء بذاته بعيداً، أن يجعل المرء من ذاته مشتركة، أن يكون ضائعاً وسط الكثرة، أن يضحي المرء بفرديته وحريته لصالح كينونات أخرى. ما من شيء أكثر امتلاء بالتناقضات، أكثر فساداً وخلواً من المعنى، من أن تعتبر الكينونة الطبيعية على أنها منتجة

من قبل كينونة فائقة، روحية بالكامل. ووفقاً لهكذا صيرورة، وبالتناسق مع مخلوق هو فقط صورة عن الخالق، على الأطفال البشريين أيضاً أن لا يؤصّلوا في عضو الرحم الشائن، المتموضع في الأسفل، بل في التنظيم الأعلى، الرأس.

الفقرة العشرون: لقد اشتق قدامى الإغريق كل الينابيع، الجداول، الآبار، البحيرات، والبحار من أوقيانوس Oceanos؛ وجعل الفرس القدامى كل جبال الأرض تنشأ في جبل البوردي Albordy. هل أن اشتقاق كل الكينونات من كينونة واحدة كاملة هو شيء مختلف أو أفضل؟ لا، إنه يعتمد على طريقة التفكير ذاتها. مثلما أن البوردي جبل مثل كلّ أولئك الذين أصلهم فيه، كذلك أيضاً الكينونة الإلهية، كمصدر لكل أولئك المشتقين منها، هي مثلهم، لا تختلف عنهم بالنسبة للنوع؛ لكن كما أن البوردي متمايز عن كل الجبال الأخرى بالحفاظ على صفاتهم على نحو بارز، أي، بالدرجة التي تبالغ بها المخيلة إلى الحد الأقصى، إلى السماء، خلف الشمس، القمر، والنجوم، كذلك أيضاً الكينونة الإلهية متمايزة عن كل الكينونات الأخرى. الوحدة غير منتجة؛ وحده المذهب الثنائي، التعارض، الاختلاف منتج. فذلك الذي ينتج الجبال ليس فقط مختلفاً عنها، بل شيء متعدّد الجوانب في ذاته. وتلك العناصر التي تنتج الماء، ليست فقط مختلفة عن الماء، بل أيضاً عن ذواتها، لا، بل معادية أحدها للآخر. تماماً كما أن العبقرية، الذكاء، الفطنة، إنما هي مُنتَجة ومطورة من قبل التناقضات والصراعات فحسب، كذلك فإن الحياة كانت قد أنتجت من قبل العناصر، القوى، والكينونات المختلفة، لا، المتعادية.

الفقرة الحادية والعشرون: «من غرس الأذن أفلا يسمع؟ وإذا كوّن العين

أفلا يبصر؟» [مز 94:9 ـ مترجم]. هذا الاشتقاق الكتابي أو الربوبي لكينونة مسبغ عليها حاستا السمع والرؤية من كينونة مسبغ عليها الحواس ذاتها، أو، باستخدام تعبير من اللغة الفلسفية الحديثة، اشتقاق الكينونة الروحية والذاتية من كينونة أخرى روحية وموضوعية، إنما يقوم على الأساس ذاته، ويعبّر عن التفسير ذاته الذي يعبّر عنه التفسير الكتابي للمطر من كتل سماوية من المياه تم جمعها ما وراء الغيوم أو فيها، أو الاشتقاق الفارسي للجبال من الجبل الأصلي، البوردي، أو التفسير الإغريقي للينابيع والأنهار من الأوقيانوس. الماء من الماء، لكن من ماء عظيم ويشمل كلّ شيء إلى درجة هائلة؛ الجبل من الجبل، لكن من جبل يشمل كل شيء لا متناه؛ وهكذا فالروح من الروح، الحياة من الحياة، والعين من العين ـ لكن من عين، حياة، وروح لا متناهية وتشمل كلّ شيء.

الفقرة الثانية والعشرون: عندما يتساءل الأولاد عن أصل الأطفال الرضّع، نعطيهم *التفسير* بأن الممرضة تأتي بهم من البئر حيث كانوا يسبحون مثل السمك. والتفسير الذي يعطينا إياه اللاهوت عن أصل الكينونات العضوية أو الطبيعية هو بشكل عام لا يختلف كثيراً. اللّه هو البئر العميقة أو الجميلة للمخيلة التي يُحتوى فيها كل الوقائع، كل الكمالات، كل القوى، التي تسبح فيها الأسماك الصغيرة المصنعة للتو. اللاهوت هو الممرضة التي تأخذهم من البئر، لكن الشخص الرئيس، الطبيعة، هو الأم التي تنجب الأولاد بالآلام، التي تحمل بهم تسعة أشهر تحت قلبها، تترك كلياً خارج الاعتبار في هكذا تفسير، الذي في الأصل كان طفولياً، لكنه اليوم صبياني. وبالتأكيد فإن مثل هذا التفسير إنما هو أكثر جمالية، أكثر إبهاجاً للقلب، أسهل، أكثر قابلية للفهم وللتصوّر لأبناء اللّه من الطريقة

الطبيعية، التي فقط بدرجات ومن خلال عقبات لا حصر لها تنهض من الظلمة إلى النور. لكن أيضاً فإن التفسير الذي قدّمه أسلافنا الأتقياء لعواصف البَرَد، الأوبئة بين الماشية، الجفاف، العواصف الرعدية، باقتفاء أثرها في وساطة صنّاع الطقس، المشعوذين، والساحرات، هو أكثر عملية، أسهل بكثير، وبالنسبة لغير المتعلمين حتى في يومنا هذا، أكثر قابلية للفهم بكثير من تفسير هذه الظواهر من علل طبيعية.

الفقرة الثالثة والعشرون: «أصل الحياة غير قابل للتفسير وغير قابل للتصوّر». ليكن الأمر كذلك؛ لكن عدم القابلية على الاستيعاب هذه لا تبرّر لنا في أن نستنتج منها العواقب الخرافية التي يستنتجها اللاهوت من عيوب المعرفة البشرية، ولا في الذهاب إلى ما وراء عالم العلل الطبيعية: لأنه لا يمكننا سوى القول، «لا نستطيع تفسير الحياة من هذه العلل والظواهر الطبيعية التي هي معروفة لنا، أو *بقدر ما* هي معروفة لنا» ـ لكننا لا نستطيع القول، «لا يمكن تفسير الحياة البتة من الطبيعة»، دون الادعاء باستنزاف بحر الطبيعة بالفعل حتى القطرة الأخيرة. عدم القابلية على الاستيعاب هذه لا تبرّر لنا تفسير غير القابل للتفسير عبر افتراض كينونات متخيّلة، وفي خداع وتضليل أنفسنا والآخرين عبر تفسير لا يفسّر شيئاً. إنه لا يبرّر لنا تبديل الجهل بعلل ماديّة طبيعية بلا ـ وجود لمثل تلك العلل، وتأليه، تشخيص، تمثيل جهلنا في كينونة والتي ستقضي على جهل كهذا، والذي لا يعبّر بعد عن أي شيء غير طبيعة هكذا جهل، عيب الأسباب الإيجابية، المادية للتفسير. لكن لأي شيء تكون الكينونة غير المادية، غير الجسدية، غير الطبيعية، خارج العالم التي نحاول من ثم أن نعيد إليها أصل كل الحياة، غير التعبير الدقيق عن الغياب العقلي للعلل

المادية، الجسدية، الطبيعية، الكونية؟ لكن عوضاً عن أن نكون نزيهين ومتواضعين للغاية بحيث نقول صراحة: «نحن لا نعرف أي سبب، نحن لا نعرف كيف نفسّر الأمر، لا نمتلك معلومات ولا مواد»، فانتم تحولون هذه العيوب، هذه الأمور السلبية، هذه الخواءات في رأسكم عبر نشاط مخيلتكم إلى كينونات إيجابية، كينونات لا مادية، أي، كينونات والتي هي ليست مادية ولا طبيعية، لأنكم لا تعرفون بأية علل مادية أو طبيعية. مع ذلك، ففي حين أن الجهل قانع بالكينونات غير المادية، غير الجسدية، غير الطبيعية، فإن رفيقته التي لا يمكن فصلها عنه، المخيلة الداعرة، التي دائماً وبشكل حصري تنغمس في مضاجعة مع كينونات بكمال أعلى، ترتقي مباشرة بهذه المخلوقات المسكينة للمخيلة إلى صف كينونات خارقة للمادة، خارقة للطبيعة.

الفقرة الرابعة والعشرون: إن الفكرة القائلة إن للطبيعة أو للكون بداية حقيقية، وأنه نتيجة لذلك في زمن ما لم يكن ثمة طبيعة، لا كون، هي فكرة ضيقة، والتي تبدو مقبولة للإنسان طالما هو فقط يمتلك مفهوماً ضيقاً، محدوداً للعالم. إنها مخيلة دون معنى أو أساس ـ هذه المخيلة أنه في وقت ما لا شيء وجد فعلياً، لأن الكون هو مجمل كل الوقائع. كل صفات اللّه أو تحديداته التي تجعل منه كينونة موضوعية، واقعية هي فقط صفات مجردة [معطاة الشكل التجريدي ـ مترجم] *عن الطبيعة*، والتي تفترض مسبقاً الطبيعة وتعرفها، والتي هي نتيجة لذلك لم تكن لتتواجد لو أن الطبيعة لم تتواجد. الحقيقة، حين نقوم بعملية تجريد عن الطبيعة: حين في أفكارنا أو مخيلتنا نقضي على وجودها، أي، حين نغلق أعيننا ونطفىء كلّ صور الأشياء الطبيعية المنعكسة من خلال حواسنا ونتخيّل الطبيعة ليس بحواسنا

(ليس بشكل عيني *in concreto*، كما يقول الفلاسفة) يتبقى هناك كينونة، مجمل صفات مثل اللاتناهي، القوة، الوحدة، الضرورة، الخلود؛ لكن هذه الكينونة التي تتبقى بعد اقتطاع كل الصفات والظواهر التي تعكسها حواسنا هي في الحقيقة ليست غير الجوهر التجريدي للطبيعة، أو الطبيعة «*في التجريد*»، في الفكر. وهكذا اشتقاق للطبيعة أو الكون من اللّه إنما هو من ثم في هذا الصدد ليس سوى الاشتقاق للجوهر الحقيقي للطبيعة، كما تظهر لحواسنا، من جوهرها المجرّد، المتخيّل، الذي يتواجد فقط في فكرنا ـ اشتقاق يظهر بأنه معقول لأنه في فعل التفكير نحن معتادون على اعتبار المجرّد والعام على أنهما ذلك الأقرب إلى الفكر، والذي هو نتيجة لذلك يجب أن يفترض مسبقاً بالنسبة للفرد، الحقيقي، العيني، باعتباره ذلك الذي هو أعلى وأقدم في الفكر، مع أنه في الواقع فإن العكس تماماً هو ما يحدث، بقدر ما تتواجد الطبيعة قبل اللّه، أي، العيني قبل التجريدي، ذلك الذي نتصوره بحواسنا قبل ذلك الذي يكون فكراً. في الواقع، حيث يمضي كلّ شيء بشكل طبيعي، النسخة تتبع الأصل، الصورة الشيء الذي تمثله، الفكر غرضه ـ لكن على الأرضية العجائبية، الحارقة للطبيعة للاهوت، الأصل يتبع النسخة، الشيء شبيهه الخاص. يقول القديس أغسطينوس، «إنه غريب، لكنه مع ذلك حقيقي، أن هذا العالم لم يكن باستطاعته أن يتواجد إن لم يكن معروفاً للّه». هذا يعني: العالم معروف ومفكّر به قبل أن يتواجد؛ لا، إنه يتواجد فقط لأنه كان مفكّراً به ـ الوجود هو عاقبة المعرفة أو فعل التفكير، الأصل عاقبة النسخة، الغرض عاقبة الشبيه.

الفقرة الخامسة والعشرون: حين نختزل العالم أو الطبيعة إلى مجمل صفات مجرّدة، إلى غرض ميتافيزيقي، أي، خيالي مجرّد، ونعتبر العالم

التجريدي على أنه العالم الحقيقي، فإنها ضرورة منطقية عندئذٍ أن نعتبره محدوداً. العالم لا يُعطى إلينا من خلال فعل التفكير، ليس على الأقل من خلال التفكير الميتافيزيقي والمفرط فيزيائياً الذي يقوم بعملية تجريد من العالم الحقيقي ويؤسس وجوده الحقيقي والأرفع على مثل هكذا تجريد ـ العالم يُعطى إلينا من خلال الحياة، عن طريق الإدراك الحسي، عن طريق الحواس. لأن كينونة تجريدية والتي هي تفكّر فحسب لا يتواجد هنالك ضوء، لأنها لا تمتلك عيوناً، لا حرارة، لأنها لا تمتلك شعوراً، وبشكل عام لا عالم لأنها لا تمتلك عضواً لإدراكها الحسي؛ فلمثل كينونة كهذه لا يتواجد في الواقع شيء. العالم، نتيجة لذلك، يتواجد بالنسبة لنا فقط لأننا لسنا كينونات منطقية أو ميتافيزيقية، لأننا كينونات أخرى، لأننا أكثر من مجرد مناطقة أو ميتافيزيقيين. لكن تماماً كما يَظْهر هذا *الزائد* للمفكّر الميتافيزيقي على أنه *ناقص*، هذا النفي لفن التفكير على أنه تفكير مطلق. الطبيعة بالنسبة له ليست غير نقيض العقل. وهذا التعريف السلبي والتجريدي المجرّد يجعل منه تعريفها الإيجابي، جوهرها. نتيجة لذلك من التناقض اعتبارها ككينونة إيجابية تلك الكينونة، أو بالأحرى ذلك اللاكيان الذي هو مجرّد النفي لفعل التفكير، الذي هو شيء متخيل، لكنه بحسب طبيعته غرض للحواس، الذي هو مضاد لفعل التفكير وللعقل. الكينونة التي تتواجد في الفكر تكون بالنسبة للمفكّر، نتيجة لذلك فمن البديهي بالنسبة له أن كينونة لا تتواجد في الفكر لا يمكن لها أن تكون جوهراً حقيقياً، خالداً، أصلياً. إنه يتضمّن بالفعل تناقضاً لأن يفكّر العقل بنقيضه فحسب؛ إنه لا يتناغم مع ذاته إلا حين يفكّر بذاته فحسب (من وجهة نظر التأمل الميتافيزيقي) أو على الأقل (من وجهة نظر الربوبية)

حين يفكّر بجوهر لا يعبّر غير عن طبيعة فعل التفكير، الذي لا يُعطى بغير الفكر، والذي هو نتيجة لذلك بحد ذاته ليس غير كينونة متخيلة. وهكذا فالطبيعة تختفي ضمن العدم. لكنها مع ذلك *تتواجد*، مع أنها وفقاً للمفكّر لا يمكنها أن تكون ولا يجب أن تكون. كيف يفسّر الميتافيزيقي وجودها إذن؟ بعوز ـ ذاتي، نفي ـ ذاتي، إنكار ـ ذاتي للعقل الذي هو على ما يبدو عقل طوعي، لكن الذي هو من الحقيقة بالذات مناقض لطبيعته الداخلية، ومفروض قسراً عليه ليس إلا. لكن حين تختفي الطبيعة من وجهة نظر المفكّر التجريدي ضمن العدم، فمن ناحية أخرى فإنه من وجهة نظر الملاحظة والتأمل الحقيقيين للعالم، فإن ذلك العقل الخلاق يختفي ضمن العدم. لكن من وجهة نظر كلّ الاستدلالات للعالم من اللّه، للطبيعة من العقل، للفيزياء من الميتافيزيقيا، للحقيقي من التجريدي، إنما تبرهن على أنها ليست سوى *لعب منطقية*.

الفقرة السادسة والعشرون: الطبيعة هي الغرض الأول والأساسي للدين، لكنها ذلك الغرض حتى حين تكون غرضاً مباشراً وآنياً للعبادة الدينية، كما على سبيل المثال، في ما يدعى بالأديان الطبيعية، ليست بحد ذاتها، كطبيعة، بالطريقة وبالمعنى اللذين ننظر فيهما إليها من منظور الربوبية أو الفلسفة والعلوم الطبيعية. الطبيعة بالنسبة للإنسان أصلاً، أي، حين ينظر إليها بعين دينية، هي على الأرجح غرض لصفاته، كينونة مشخصة، حية، شاعرة. الإنسان في الأصل لا يميز نفسه عن الطبيعة، ونتيجة لذلك لا يميّز الطبيعة عن نفسه، وهكذا فإن الأحاسيس التي يثيرها فيه أي غرض في الطبيعة تظهر له للتو على أنها صفات للغرض. إن الأحاسيس والمعلولات المفيدة، الخيرة إنما تسببها طبيعة خيرة ومفيدة، أما الأحاسيس السيئة،

المؤلمة، مثل الحرارة، البرد، الجوع، الوجع، المرض، فهي على يد كينونة شريرة، أو على الأقل على يد طبيعة في حالة مزاج سيئ، حقد، حنق. وهكذا فالإنسان على نحو لا إرادي وغير واعٍ، أي، بشكل ضروري ـ مع أن هذه الضرورة هي فقط ضرورة نسبية وتاريخية ـ يحوّل جوهر الطبيعة إلى كينونة شاعرة، أي، ذاتية، بشرية. لا عجب أنه عندئذٍ على نحو معتبر، على نحو عارف وإرادي يحولها إلى غرض للدين، للصلاة، أي، غرض يمكن أن يتأثر بمشاعر الإنسان، صلواته، خدماته. والحقيقة، أن الإنسان جعل الطبيعة خانعة بالفعل وأخضعها لذاته عن طريق تمثلها لمشاعره وإخضاعها لشغفه. إضافة إلى ذلك، فالإنسان غير المتعلّم الطبيعي لا يفترض مسبقاً فقط دوافع، حوافز، شغف في الطبيعة، بل إنه يرى أناساً حقيقيين في أجساد طبيعية. وهكذا فإن هنود أورينوكو Orinoco يعتقدون أن الشمس، القمر، والنجوم بشر ـ فهم يقولون، «أولئك الذين هم فوق هناك، هم بشر ويشبهونها». ويعتقد الباتاغونيون أن النجوم «هنود سابقون»؛ ويعتقد سكان غرينلاند أن «الشمس، القمر، والنجوم، هم أسلافهم الذين نُقلوا في مناسبة خاصة إلى السماء». وهكذا فإن المكسيكيين القدامى كانوا يعتقدون أن الشمس والقمر اللذين كانوا يعبدوهما كآلهة كانا بشراً في أزمنة سابقة. لاحظ من ثم التوكيد المقدّم في عملي جوهر *المسيحية* بأن الإنسان في الدين هو في علاقة وصال مع ذاته فقط، وإن إلهه في علاقة تعكس فقط جوهره الخاص ـ هذا التوكيد تم إثباته حتى من قبل إظهارات الدين الأكثر عدم مثاقفة، الأولية؛ فحيثما يعبد إنسان أشياء هي الأبعد عن ذاته والأكثر لا شبهاً بها، مثل النجوم، الحجارة، الأشجار، لا بل حتى مخالب السرطانات، وصدفات الحلزون؛ فإنه يعبدها فقط لأنه ينقل ذاته

إليها، لأنه يعتقد أنها تلك الكينونات، أو على الأقل أنها مسكونة بمثل تلك الكينونات كذاته. الدين من ثم يظهر التناقض الملحوظ، الذي هو مع ذلك سهل الفهم، لا، بل حتى ضروري، أنه، في حين من ناحية (من وجهة نظر الربوبية أو الأنثروبولوجية) يعبد الجوهر البشري باعتباره جوهراً إلهياً، لأنه يظهر له مختلفاً عن الإنسان، كجوهر ليس للإنسان ـ من ناحية أخرى (من المنظور المادي) يعبد *بالعكس*، الجوهر الذي هو ليس بشرياً باعتباره جوهراً إلهياً، لأنه يظهر له كجوهر بشري.

الفقرة السابعة والعشرون: إن قابلية الطبيعة للتحول، خاصة في تلك الظواهر في غالبيتها تسبب أن يشعر الإنسان باتكاليته عليها، هي المبدأ الرئيس الذي يفسّر لماذا تظهر للإنسان ككينونة بشرية، اعتباطية، ولماذا تُعبد من قبله دينياً. ولو أن الشمس كانت تقف دائماً في السماء، لما استطاعت أبداً أن تشعل نار الشغف الديني في الإنسان. فقط حين اختفت عن عين الإنسان، وأوجعته بإرهابات الليل، وحين عاودت الظهور من جديد، يركع الإنسان على ركبتيه أمامها، حيث غلبه فرحه بعودتها غير المتوقعة. وهكذا فإن شعب الأبالاشي Apalachie القدماء في فلوريدا كانوا يحيون الشمس بترانيم عند شروقها وغروبها، وكانوا يصلّون لها حتى يمكن لها أن تعود وتباركهم بنورها. إذا كانت الأرض على الدوام قد غلّت فاكهة، أين سيكون هنالك حافز للاحتفالات الدينية لزمن الزرع والحصاد؟ فقط في إعقاب فتح رحمها حيناً، إقفاله حيناً آخر، تظهر فاكهتها على أنها *العطايا* الطوعية التي تجبر الإنسان على أن يكون ممتناً. إن التغيرات في الطبيعة تجعل الإنسان شكوكاً، متواضعاً، متديناً. الأمر غير موثوق به، ما إذا كان الطقس سيبدو مناسباً لمهماتي؛ إنه من غير المؤكد

ما إذا كنت سأحصد ما زرعت، ونتيجة لذلك لا أستطيع الاعتماد على هبات الطبيعة كضريبة مستحقة، أو عاقبة معصومة عن الخطأ. لكن حيثما يصل اليقين المتعلق بالرياضيات إلى نهاية، يبدأ هنالك اللاهوت، حتى اليوم في العقول الضعيفة. الدين هو مفهوم الضروري ـ أو العرضي ـ لشيء اعتباطي، أو طوعي. والشعور المعاكس، شعور اللادين واللألوهية، إنما يمثله سيكلوبس Cyclops يوريبيدس Euripides، حين يقول: «على الأرض أن تغلّ عشباً من أجل إطعام قطيعي، *سواء أكانت ترغب بأن تفعل ذلك أم لا* ».

الفقرة الثامنة والعشرون: إن شعور الاتكالية على الطبيعة بالاشتراك مع تخيلها على أنها كينونة شخصية، فاعلة بشكل اعتباطي، هو الحافز *للقربان*، الفعل الأكثر جوهرية للديانة الطبيعية. إن الاتكال على الطبيعة حساس على نحو خاص لي عبر رغبتي بها. الرغبة هي الشعور بعدميتي دون الطبيعة وتعبيري عن ذلك؛ لكن غير قابلة على الانفصال عن الرغبة هي المتعة، الشعور المعاكس، الشعور بوجودي ـ الذاتي، باستقلاليتي في التمايز عن الطبيعة. الرغبة، من ثم، تقية، متواضعة، متدينة ـ لكن المتعة متغطرسة، لا إلهية، خالية من الاحترام، عابثة. لكن هذه العبثية، أو على الأقل الرغبة بالاحترام في المتعة، هي ضرورة عملية للإنسان، ضرورة يؤسّس عليها وجود الإنسان ـ لكنها ضرورة تتناقض على نحو مباشر لاحترامه النظري للطبيعة كما لكينونته الأنانية، الحساسة، التي تعاني تماماً كإنسان يؤخذ أي شيء منه. إن الاستيلاء على الطبيعة أو استعمالها يظهر من ثم للإنسان، كما لو أنه كان انتهاكاً لحقها، كاستيلاء على ملكية آخر، كاعتداء. من أجل استرضاء ضميره إضافة إلى غرض جريمته التخيلية؛ كي

يُظهر أن لصوصيته تمتلك أصلها في الرغبة، لا في الغرور، فهو ينقص متعته ويعيد إلى الغرض جزءاً من أملاكه المنهوبة. وهكذا فقد اعتقد الإغريق أنه حين تُقطع شجرة، فإن نفسها، الدرياد Dryad، تنوح وتبكي للقدر Fate كي ينتقم من المعتدي. وهكذا ما من روماني كان يُغامر بقطع شجرة على أرضه دون التضحية بخنوص لاسترضاء إله أو إلهة هذا الدغل. وهكذا فإن الأوستيكا Ostikas، بعد أن يذبحوا دبّاً، يعلقون جلده على شجرة، يقدّمون له كل صنوف الإجلال، ويعتذرون أيضاً بقدر ما يستطيعون للدبّ على قتلهم إياه. «إنهم يعتقدون بهذه الطريقة على نحو مؤدب لتجنب الضرر الذي يمكن أن تلحقه روح الحيوان بهم». وهكذا فإن قبائل أميركا الشمالية من خلال طقوس احتفالية مشابهة تسترضي الأنفس المغادرة للحيوانات المذبوحة. وهكذا فالفليبينيون كانوا يطلبون الإذن من السهوب والجبال، إذا ما أرادوا عبورها، واعتبروا أنها جريمة أن تقطع شجرة قديمة. ويصعب على البرامين Bramin أن يجرؤ على أن يشرب وأن يدوس على الأرض بقدمه، لأن كل خطوة، كل رشفة ماء تسبب الألم والموت لكينونات حساسة، نباتات إضافة إلى حيوانات، وعليه من ثم أن يقدّم كفارة «كي يكفّر عن موت خلائق التي قد يكون قضى عليها، وإن على نحو غير واع، في النهار أو الليل».

الفقرة التاسعة والعشرون: القربان يجعل محسوساً باللمس بالنسبة للحواس جوهر الدين بكليته. إن مصدره هو الاتكالية، الخوف، وعدم الثقة بالنجاح، الحوادث المستقبلية، تأنيبات الضمير بسبب إثم ارتُكِب؛ لكن النتيجة، هدف القربان هو الوعي ـ الذاتي، الشجاعة، المتعة، الثقة من النجاح، الحرية والسعادة. كخادم للطبيعة فإني أقيم شعيرة القربان؛ لكن

كسيّد لها فأنا أقلع عنها. مع ذلك، فمع أن شعور الاتكالية على الطبيعة هو مصدر الدين والحافز عليه: فإن هدفه وغايته بالذات هو القضاء على مثل هذا الشعور، الاستقلال عن الطبيعة. أو، مع أن ألوهية الطبيعة هي القاعدة، فإن أساس الدين عموماً والمسيحية بشكل خاص، ما تزال غايته هي ألوهية الإنسان.

الفقرة الثلاثون: يجعل الدين فرضيته المسبقة التناقض بين *الإرادة والقدرة*، الرغبة والإشباع، النية والنجاح، المخيلة والواقع، الفكر والوجود. في رغبته، في مخيلته، الإنسان غير محدود، حر، قدير ـ إله؛ لكنه في قدرته، في الواقع، فإنه مقيّد، متكل، محدود ـ إنسان؛ الإنسان بمعنى كينونة محدودة، هو متناقض تمايزياً عن الإله. «الإنسان يقترح، الإله يحسم»، كما يقول المثل. «الإنسان يخطط، وجوف Jove ينجز الأمر على نحو مختلف». الفكر، الإرادة *لي*؛ لكن ما أفكّر به وأريده *ليس لي*، إنه خارجي، لا يتكل علي. إن القضاء على مثل هكذا تعارض أو تناقض هو الميل، الهدف للدين؛ وتلك الكينونة التي يُقضى عليها فيه، والتي فيها يكون ذلك الذي أرغب وأتخيل أنه ممكن، الذي تثبت مع ذلك قدرتي المحدودة على أنه مستحيل بالنسبة لي، يكون ممكناً، لا، بل حقيقي ـ تلك الكينونة هي الكينونة الإلهية.

الفقرة الحادية والثلاثون: ذلك الذي هو مستقل عن إرادة الإنسان ومعرفته هو العلة الأصلية، المناسبة، الشخصية للدين ـ علة الإله. يقول بولس، «أنا غرست وأبلس سقى، ولكن اللّه هو الذي أنمى. فليس الغارس بشيء ولا السّاقي، بل ذاك الذي يُنمي وهو اللّه». [رسالة كورنثوس الأولى 3: 7 ـ 8. مترجم]. ولوثر يقول، «يجب أن نحمد اللّه ونشكره لأنه يعاني

كي تنمو الحبوب، ويقرّ أنه ليس عملنا، بل بركته وهبته، حين تنمو الحبوب والخمر وكل صنوف الفاكهة التي نأكلها ونشربها لإشباع رغباتنا». ويقول هسيودس Hesiod إن الفلاح الكادح يجني حصاداً غنياً حين يهبه جوف Jove نهاية حسنة. إن حراثة التربة إذاً، بذر الحبوب وسقايتها، إنما يعتمد علي، لا على النجاح. هذا في يد اللّه، ونتيجة لذلك يُقال: «بركة اللّه هي الشيء الرئيس». لكن ما هو اللّه؟ في الأصل لا شيء غير الطبيعة، أو جوهر الطبيعة؛ لكن الطبيعة كغرض للصلاة، ككينونة قابلة للإقناع عبر التوسل exorable، هي نتيجة لذلك ذات إرادة. جوف Jove هو علة أو جوهر الظواهر المتعلقة بأحوال الطقس؛ لكن هذا لا يشكّل بعد شبخصيته الإلهية، الدينية؛ أيضاً فإن من هو غير متدين يفترض علّة للمطر، للعاصفة الرعدية، للثلج. إنه إله فقط، لأنه وبقدر ما تعتمد هذه الظواهر على إرادته الخيرة. فذلك الذي هو مستقل عن إرادة الإنسان، نتيجة لذلك، عبر الدين، يُجعل معتمداً على إرادة اللّه بقدر ما يكون الغرض ذاته هو المعني (موضوعياً)؛ لكن ذاتياً (بقدر ما يكون الإنسان هو المعني بالأمر) يُجعل معتمداً على الصلاة، لأن ما يعتمد على الإرادة هو غرض للصلاة ويمكن له أن يتغيّر. «*حتى الآلهة لينة العريكة*. يمكن للإنسان الفاني أن يغيّر عقولها بالبخور والنذور المتواضعة، بإراقة الخمر والعطر».

الفقرة الثانية والثلاثون: الغرض الوحيد أو على الأقل الرئيس للدين هو غرض الأهداف والحاجات البشرية، على الأقل ما أن يرتفع الإنسان فوق ما هو غير محدود من اعتباطية، عجزية وتصادفية الفتشية Fitishism على نحو مناسب. لهذا السبب بالذات فإن هذه الكينونات التي هي الأكثر ضرورة والأكثر لا غني عنها للإنسان استمتعت أيضاً بالعبادة الدينية الأكثر عمومية

والأكثر علواً. لكن أياً كان غرض الرغبات والأهداف البشرية، فهو للسبب ذاته غرض *للأماني البشرية*. أحتاجُ إلى المطر وأشعة الشمس من أجل نمو ناجح لبذوري. في أزمنة الجفاف المستمر أتمنى من أجل ذلك المطر؛ في أزمنة المطر المستمر أتمنى أشعة الشمس. الأمنية هي الرغبة التي إشباعها ليس ضمن نطاق قدرتنا؛ إرادة، لكن دورة القدرة على أن تسود، مع أنه ليس بالمطلق هكذا، مع ذلك ففي وقت بعينه، في ظل شروط وظروف بعينها، ومثل تلك التي يرغب بها الإنسان من منظور الدين. لكن تماماً ما يكون جسدي، قدرتي بشكل عام، غير قادر على فعله، إنما هو ضمن قدرة رغبتي. ما أطلبه وأرغب به، ذلك ما أسحره وألهمه بأمنياتي.[1] وفي حين أنه في ظل تأثير شعور ـ والدين يتجذّر في الشعور، في العاطفة ـ يضع الإنسان جوهره خارج ذاته؛ إنه يعامل على أنه حي ما هو دون حياة، على أنه اعتباطي ما هو دون إرادة؛ إنه ينشّط الغرض بتأوهاته، لأنه لا يستطيع ربما في حالة الشعور تقديم ذاته إلى كينونة حساسة. الشعور لا يقصر ذاته ضمن حدود موصوفة من قبل العقل؛ إنه يتدفق على الإنسان؛ صدره ضيّق جداً لأجل ذلك؛ يجب أن يتواصل هو ذاته مع العالم الخارجي وبفعله ذلك يجعل الجوهر غير الحسّاس للطبيعة جوهراً متعاطفاً. الطبيعة تُسحر بالشعور البشري، الطبيعة تتفق مع شعور الإنسان وتتمثله، أي، الطبيعة ذاتها التي توهَب الشعور، هي طبيعة *بحد ذاتها غرض للدين*، *كينونة إلهية*. الأمنية هي *الأصل*، جوهر *الدين بالذات* ـ جوهر *الآلهة ليس* غير جوهر

(1) تحت هذه الترويسة يمكن أن نذكر أيضاً قواعد الإتيكيت العديدة التي وضعتها الأديان للإنسان في وصاله مع الطبيعة، كي لا يلوثها أو ينتهكها. مثلاً، لا يسمح لعابد أورمازد أن يدوس بقدم عارية على الأرض لأن الأرض مقدسة؛ ولم يكن يُسمح لإغريقي أن يخوض النهر بأيد غير مغسولة.

الأمنية.[1] الآلهة ليست غير كينونات خارقة للبشرية خارقة للطبيعة؛ لكن أليست الأمنيات أيضاً من طبيعة *خارقة للبشرية وخارقة للطبيعة*؟ على سبيل المثال، هل أنا في أمنيتي، في مخيلتي، أظل إنساناً، حين أرغب أن أكون كينونة أزلية، حرّة من أغلال الجسد الأرضي؟ لا! إن من لا يمتلك أمنيات لا يمتلك آلهة أيضاً. لماذا وضع الإغريق تأكيداً كهذا على خلود الآلهة وسعادتها؟ لأنهم لم يرغبوا هم أنفسهم أن يكونوا فانين وغير سعداء. حيثما لا تُسمع نواحات حول فناء الإنسان وبؤسه، لا تُسْمع تراتيل في تشريف الآلهة الخالدة والسعيدة. وحده ماء الأعين الذي يذرف في القلب البشري يتبخر في سماء المخيلة إلى الصورة الغائمة للكينونة الإلهية. من الجدول الكوني، المحيطات، يشتق هوميروس الآلهة؛ لكن هذا الجدول الزاخر بالآلهة هو *في الواقع* مجرّد هروب للمشاعر البشرية.

الفقرة الثالثة والثلاثون: الإظهارات اللادينية للدين مُكيفة بأفضل حال كي تميط اللثام بطريقة شعبية عن أصل الدين وجوهره. وهكذا فإنه إظهار لاديني للدين ونتيجة لذلك فإن أكثر ما انتُقد بحدة من قبل الوثنيين الأتقياء، أنه ككينونة عامة يلجأ الإنسان إلى الدين، أنه يناشد اللّه ويفكّر به، فقط في أزمنة المحن؛ لكن هذه الحقيقة بالذات تكشف لنا عن مصدر الدين. في أزمنة المحن أو الحزن، لا يهم أن كانت محنه وحزنه هو أم محن وحزن غيره، يدرك الإنسان التجربة الموجعة لعدم قدرته على فعل ما يرغب ـ يجد يديه مقيدتين. لكن شلل الأعصاب الحركية لا تعني في الوقت ذاته شلل الأعصاب الحسية؛ فأغلال قوتي الفيزيائية لا تعني أيضاً في الوقت

(1) التعبير الذي يستخدم بمعنى يرغب في اللغة الجرمانية القديمة هو ذاته الذي يستخدم بمعنى يسحر.

ذاته أغلال إرادتي، قلبي. على العكس من ذلك، كلما ازداد تقييد يدي، كلما ازدادت لا محدودية أمنياتي، كلما ازداد حماس رغبتي بالفداء، كلما ازدادت طاقة صراعي لأجل الحرية، إرادتي لن تكون محدودة. إن قدرة قلب الإنسان أو إرادته التي هي بتأثير الحزن ضُخمت وأفرط في إثارتها واحدة خارقة للبشري، إنما هي قوة الآلهة الذين ليس لهم ضرورة ولا حد. الآلهة قادرون على فعل ما يرغب به الإنسان، أي، إنهم يطيعون شرائع قلب الإنسان. ما يكونه الإنسان فقط فيما يخص نفسه، تكونه الآلهة مادياً أيضاً؛ ما يستطيع فعله فقط ضمن إرادته، مخيلته، قلبه، أي، *فكريّاً*، كما على سبيل المثال، رفة عين من مسافة بعيدة، الآلهة قادرة أن تفعله *مادياً*. الآلهة هي الرغبات المجسدة، المحققة لخلائق الإنسان ـ الحدود الطبيعية لقلب الإنسان وإرادته مدمرة ـ للإرادة غير الحرة، خلائق قواها الفيزيائية معادلة لقوى الإرادة الفيزيائية. إن *الإظهار* اللاديني لهذه القوة الخارقة ـ للطبيعة للدين إنما هو *ممارسة السحر* بين أمم غير متحضّرة، حيث بطريقة محسوسة الإرادة المجرّدة للإنسان تظهر على أنها إله، مسيطرة على الطبيعة. لكن حين إله إسرائيل بطلب من يشوع[1] يأمر الشمس أن تقف أو يأمرها أن تمطر امتثالاً لصلاة إيليا[2]، وحين إله المسيحيين من أجل إثبات

---

(1) يذكر فويرباخ هذه الميثة myth أكثر من مرة؛ وهي مستلة من سفر يشوع [بن نون]: «فوَقَفَتِ الشَّمْسُ وثَبَتَ القَمَر، إلى أنِ انتَقَمَتِ الأُمَّةُ مِن أعْدائِها، أوَلَيسَ ذلكَ مَكتوبًا في سِفرِ المُستَقيم؟ فوَقَفَتِ الشَّمسُ في كَبِدِ السَّماء، وأبطأَت عنِ الغُروبِ نَحوَ يَومٍ كامِل». (13:10 ـ مترجم).

(2) هذه الميثة أيضاً مستلة من سفر الملوك الأول، 18: 41 وما بعد: «وقالَ إيليَّا لأَحآبُ: إِصعَدْ كُلْ واَشرَبْ، فهُوَذا صَوتُ دَوِيِّ مَطَر. فصَعِدَ أحآبُ لِيأكُلَ وَيشرَب. وصَعِدَ إيليَّا إلى رَأسِ الكَرمَل وانحَنى إلى الأرضَ وجَعَلَ وَجهَه بَينَ رُكبَتَيه». وقالَ لِخادِمِه: «إِصعَدْ وتَطلَّع نَحوَ البَحْر. فصَعِدَ وتَطلعَ وقال: ما مِن شيَء. فقالَ لَه: أرجِعْ على سَبعِ

ألوهيته، أي، قدرته على تحقيق كل رغبات الإنسان، فبكلمته وحدها يهدّئ البحر الهائج، يشفي المرضى، يقيم الموتى: هنا كما في ممارسة السحر أيضاً، الإرادة المجردة، الرغبة المجردة، الكلمة المجردة تعلن عن قوة تلغي الطبيعة. الفارق الأوحد هو أن المشعوذ يدرك غاية الدين بطريقة لادينية، في حين أن اليهودي والمسيحي يفعلان ذلك بطريقة دينية، بقدر ما يضع الأول داخل ذاته، ما ينقله الأخيران إلى الإله، بقدر ما يجعل الأول الغرض لإرادة أو وصية معبّرة ما يجعله الآخران غرض إرادة *ما تزال* خاضعة، لرغبة تقية؛ باختصار بقدر ما يفعل الأول عبر ذاته ولأجلها، ما يفعله الآخران عبر اللّه ولأجله. لكن المثل العام: «*quod quis per alium fecit ipse fecisse putatur*»، أي، ما يفعله واحدنا من خلال واحد آخر فذلك يُنسب إليه على أنه عمله الخاص، إنما يجد تطبيقاً له هنا أيضاً: ما يفعله واحدنا من *خلال اللّه*، فذلك يفعله في الحقيقة هو *ذاته*.

الفقرة الرابعة والثلاثون: ليس للدين - على الأقل في الأصل وفي العلاقة مع الطبيعة - وظيفة وميل غير أن يبدّل الجوهر غير الشعبي والمطارَد للطبيعة إلى جوهر مألوف ومعروف؛ كي تُصهر الطبيعة، التي هي بحد ذاتها مزروعة وقاسية كالحديد، في نار القلب المتوهجة لأجل أهداف بشرية؛ أي، أنها تمتلك الغاية ذاتها التي للحضارة أو الثقافة، اللتين غرضهما ليس غير أن يجعلا الطبيعة كينونة مفهومة نظرياً وعملياً لينة العريكة، متوافقة مع

مَرَّات. فلَمَّا كان في السَّابِعةِ قال: ها غيمٌ صَغيرٌ، قَدرَ راحةِ رَجُل، طالِعٌ مِنَ البَحْر. فقالَ لَه: إِصعَدْ وقُلْ لأحآبَ: شُدَّ وانزِلْ لِئَلاَّ يَمنَعَكَ المطر. وفي أثناءِ ذلك اسوَدَّتِ السَّماءُ بِالغُيوم وهبتِ الرِّياح وجاءَ مَطَرٌ عَظِيم. فرَكِبَ أحآبُ وسارَ إلى يِزرَعيل. فأَخَذوا الثَّورَ الَّذي أعطَوهم إيَّاه وأَعَدُّوه، ودَعَوا بِاسمِ البَعلِ مِنَ الصُّبحِ إلى الظُّهرِ، وهم يَقولون: أَيُّها البَعْلُ، أَجِبْنا». [مترجم].

رغبات الإنسان ـ *بهذا الاختلاف الوحيد*، أن ما تحاول الثقافة الحصول عليه *بالواسطة*، وذلك أيضاً بالواسطة مُتعلّمٌ من الطبيعة، يحرزه الدين دون واسطة، أو ما هو الشيء ذاته، من خلال الواسطة الفائقة ـ للطبيعة للصلاة، الإيمان، الأسرار المقدسة، السحر. وهكذا نجد أن كلّ شيء مع تقدّم حضارة الجنس البشري أصبح علّة نشاط، نشاط ـ ذاتي، *أنثروبولوجيا*، كان في أزمنة سابقة علة *دين أو لاهوت*؛ كما على سبيل المثال، الفقه، السياسة، الطب، التي هي حتى هذه الأيام بين الأمم غير المتحضرة شيء من دين.[1] الحقيقة أن الثقافة والحضارة تفشلان دائماً في تحقيق أمنيات الدين، لأنه لا يستطيع تدمير تلك الحدود للإنسان التي تمتلك أساسها في طبيعته. وهكذا فالثقافة تنجح على سبيل المثال في علم إطالة الحياة (ماكروبيوتيك) لكنها لم تحرز الخلود قط. وهذه كأمنية بلا حدود التي لا يمكن تحقيقها إنما تترك للدين.

الفقرة الخامسة والثلاثون: في الدين الطبيعي يستدير المرء بكامل انتباهه إلى غرض مناقض على نحو مباشر للإرادة والمعنى الأصليين للدين؛ لأنه هنا يضحي بمشاعره وعقله للكينونة التي هي في ذاتها بلا مشاعر ولا عقل؛ إنه يضع فوق ذاته ما كان ليتمنى أن يمتلكه تحت ذاته؛ يخدم ما يرغب أن

---

(1) الآلهة هي كينونات سعيدة. هذه الغبطة هي النتيجة، الثمرة، الغاية لفعل مستقل عني، ومرغوب به من قبلي. يقول لوثر، «أن تغتبط، يعني أن *ترغب بشيء جيد*». «حين نغتبط، فنحن لا نفعل غير أن *نرغب بشيء جيد*، لكننا لا *نستطيع أن نعطي ما نرغب به*؛ لكن غبطة الله تحقيقاً وإثباتاً آنياً لمعلوله». ذلك يعني: البشر كينونات ذات رغبات؛ الآلهة هي تلك الكينونات التي تحقق الرغبة. وهكذا حتى في الحياة العامة فالكلمة الله، المستخدمة على نحو متكرر للغاية ليست غير التعبير عن أمنية. «أتمنى أن يعطيكم الله الأطفال!». ذلك يعني: أتمنى لكم الأطفال، مع الفارق الوحيد أن التعبير الأخير يحتوي الرغبة كرغبة ذاتية، غير دينية، في حين تتضمنها الأولى كرغبة دينية موضوعية.

يَحْكم، يعبد ما يمقت في الواقع، يتضرّع لأجل المساعدة مما يطلب العون ضده. وهكذا فالإغريق في تيتان Titane [مدينة قديمة - مترجم] كانوا يضحّون للريح من أجل تهدئة غضبها؛ وهكذا فالرومان كانوا يكرّسون معبداً للحمّى Fever من أجل جعلها غير مؤذية؛ وهكذا فالتونغسيون Tungusians في زمن وباء ما يصلّون بكلّ إخلاص وبانحناءات وقورة *إلى المرض الذي يمكن أن يمر بجانب أكواخهم*. (وفقاً لبالاس Pallas). وهكذا فالوديداهيان Widahians في غينيا يضحون للبحر الهائج كي يرضى بحيث يمكن أن يكون هادئاً ولا يمنعهم من صيد السمك؛ وهكذا فالهندوس مع اقتراب عاصفة فإنهم يتوجهون إلى مانيتون Maniton (أي، روح، إله، كينونة) الهواء، عند عبور الماء إلى مانيتون المياه، كي يحفظهم من كل المخاطر؛ وهكذا بشكل عام فإن أمماً عديدة تعبد بشكل واضح ليس الجوهر[1] الخيّر بل الشرير للطبيعة، على الأقل ما يظهر *لهم على أنه هكذا*. وفقاً لمنظور الديانة الطبيعية الإنسان يعلن عن حبه لتمثال، لجثمان؛ لا عجب إذاً، أنه من أجل أن يجعل ذاته مسموعة فإنه يلجأ إلى الوسائل الأكثر إشاعة لليأس، الأكثر جنوناً؛ لا عجب أنه يجرّد *نفسه من الإنسانية من أجل أن يحوّل الطبيعة إنسانية*، أنه حتى *يريق دم الإنسان كي يلهمها بمشاعر إنسانية*. وهكذا فإن الجرمان الشماليون كانوا يعتقدون بوضوح أن «*القرابين الدموية* كانت قابلة لأن تهب *لغة ومشاعر بشرية للأصنام الخشبية* وأن تهب عطايا اللغة والتأليه *للحجارة* التي عبدوها في البيوت

(1) وهكذا ففي الأزمنة غير المثقفة وبين الأمم غير المتحضرة يمكن للدين أن يكون وسيلة للحضارة، لكن في أزمنة الحضارة يمثل الدين علة للفظاظة، القدم، وهو معاد للتربية والتعليم.

المكرسة للقرابين الدموية». لكن عبثاً هي المحاولات لإلهامها بالحياة؛ الطبيعة لا تستجيب لنواحات الإنسان وأسئلته؛ إنها تعيده على نحو خال من الرحمة إلى ذاته.

الفقرة السادسة والثلاثون: كون الحدود التي يتخيلها الإنسان أو على الأقل تلك التي يتخيلها من منظور الدين (مثلاً، الحدّ الذي هو العلّة أنه لا يعرف المستقبل، أنه لا يعيش إلى الأبد، أنه لا يستمتع بالسعادة دون إعاقة أو إزعاج، أو لا يمتلك جسداً دون وزن، أو لا يستطيع الطيران مثل الآلهة، أو لا يستطيع أن يرعد مثل جوف Jove، أو لا يستطيع إضافة شيء إلى حجمه ولا أن يجعل نفسه غير مرئية بإرادته، أو لا يستطيع، مثل الملائكة، أن يعيش دون رغبات وحوافز حسية، أو باختصار لا يستطيع أن يفعل ما يريد ويرغب) ـ حيث أن هذه الحدود كلها هي كذلك في المخيلة والذهن فقط، بينما في الواقع هم ليسوا حدوداً، لأن لديهم أساسهم *الضروري في الجوهر*، في طبيعة الأشياء؛ كذلك أيضاً هي تلك الكينونة التي هي حرة من مثل هذه الحدود، الكينونة الإلهية غير المحدودة، إنما هي فقط خليقة المخيلة، التأمل، مزاج ذهني تحكمه المخيلة. مهما يكون نتيجة لذلك غرض الدين، حتى لو كان مجرد صدفة حلزون أو حصى، فإنه يكون مثل هذا الغرض فقط في صفته *كخليقة للقلب*، *للتأمل*، *للمخيلة*. هذا يسوغ التوكيد أن البشر لا يعبدون الحجارة، الأشجار، الحيوانات، الأنهار هي ذاتها، بل الآلهة التي فيها، مانيتوهاتها manitous [أرواح خيّرة أو شريرة تُجعل غرضاً للتوقير من قبل شعوب أميركا الشمالية الهندية ـ مترجم]، أرواحها. لكن هذه الأرواح للأغراض الطبيعية ليست غير *صورها المتأملة أو هم كأغراض متأملة، كخلائق للمخيلة بالتمايز عنهم كأغراض حقيقية*،

محسوسة، تماماً مثلما أن أرواح الموتى ليست غير الصور المتخيلة للموتى الذين يعيشون في ذاكرتنا ـ *كينونات التي كانت ذات مرة موجودة حقاً*، *ككينونات متخيلة*، التي هي مع ذلك من خلال الإنسان المتدين، أي، الذي لا يميّز بين الغرض وفكرته، تُعتبر بأنها كينونات حقيقية، ذاتية ـ التواجد. نتيجة لذلك فإن الخداع ـ الذاتي التقي، غير الطوعي عند الإنسان إنما يكون ضمن الديانة الطبيعية *حقيقة واضحة*، *بديهية*؛ لأنه هنا يعطي الإنسان لغرضه الديني أعين وأذان والتي يعرف أنها أعين وأذان *اصطناعية* لحجر أو قطعة خشب، ومع ذلك *يعتقد* أنها أعين وأذان *حقيقية*. وهكذا فالإنسان المتدين يمتلك عينين فقط كي لا يرى، كي يكون حجراً أعمى، وعقله فقط كي لا يفكّر، كي يكون غبياً. الديانة الطبيعية هي التناقض الواضح بين الفكرة والواقع، بين المخيلة والحقيقة. ما هو في الطبيعة حجر أو جذع شجرة ميت، هو في تصوّر الديانة الطبيعية فرد حي؛ *ظاهرياً*، *ليس* إلهاً، لكنه شيء مختلف بالتمام، مع أنه *بشكل غير مرئي*، وفقاً للاعتقاد، *إله*. لأجل هذا السبب، الديانة الطبيعية تخاطر دائماً بأن تكون الأكثر مرارة في تحررها من الأوهام، حيث أنها تحتاج فقط إلى ضربة من فأس كي ترضى، مثلاً، أنه لا يسيل دم من الأشجار المعبودة، وأنه نتيجة لذلك ما من كينونة حية، إلهية تقطن فيها. لكن كيف تنجو الديانة من هذه التناقضات وخيبات الأمل القوية التي تتعرّض لها عبر عبادة الطبيعة؟ فقط عبر جعل غرضها غرضاً *غير مرئي*، غير محسوس، بجعله كينونة تتواجد فقط في الإيمان، التأمل، المخيلة ـ باختصار، ضمن الذهن، الذي هو بحد ذاته نتيجة لذلك كينونة روحية.

الفقرة السابعة والثلاثون: حالما يصبح إنسان من كينونة فيزيائية مجردة

كينونة سياسية، أو بشكل عام كينونة تميّز ذاته عن الطبيعة، وتركّز ذاته ضمن ذاته، يُحوّل إلهه أيضاً من كينونة فيزيائية مجرّدة إلى كينونة *سياسية، مختلفة عن الطبيعة*. إن ما يقود الإنسان إلى تمييز نفسه عن الطبيعة، ونتيجة لذلك إلى إله متميز عن الطبيعة، إنما هو نتيجة لذلك ارتباطه فقط مع الناس الآخرين في *جماعة مستقلة*، حيث تكون أغراض وعيه وشعوره بالاتكالية قوى متمايزة عن تلك التي للطبيعة ولا تتواجد إلا في الفكر أو المخيلة؛ فالقوى السياسية، الأخلاقية، التجريدية، مثل قوة القانون، الرأي العام،[1] الشرف، الفضيلة ـ في حين يكون وجوده الفيزيائي خاضعاً لوجوده البشري، السياسي، أو الأخلاقي، وحيث تكون قوة الطبيعة، قوة فوق الموت والحياة، قد تم تخفيضها إلى صفة ووسيلة لقوة سياسية أو أخلاقية. جوف Jove هو إله البرق والرعد؛ لكنه يمتلك هذه الأسلحة المريعة فقط كي يسحق أولئك الذين يعصون أوامره، الشاهد الكاذب، مرتكبي العنف. جوف Jove هو والد كل الملوك ـ «من جوف Jove تكون الملوك».

نتيجة لذلك فالبرق والرعد يدعمان سلطة وكرامة الملوك.[2] نقرأ في كتاب شريعة مانو Menu، «الملك *يحرق الأعين والقلوب مثل الشمس*، من هنا ما من مخلوق بشري على الأرض يقدر على النظر إليه. إنه *نار وهواء*، إنه *شمس وقمر*، إنه إله القوانين الجنائية. النار لا تحرق غير

(1) تحت هذه الترويسة يمكن لنا أن نعتبر أيضاً عبادة الحيوانات الخبيثة.

(2) يقول هسيودس بوضوح: *أيضاً pheme* (أي، شهرة، إشاعة، رأي عام)، هي إله. [ملاحظة من المترجم: ترتبط الكلمة اليونانية pheme بـ φάναι التي تعني «يتحدث»؛ ويمكن أن تعني «شهرة» أو «تقرير» أو «إشاعة». الكلمة اللاتينية فاما fama، تقع ضمن نطاق المعاني ذاته].

شخص مفرد والذي هو بدافع عدم الاهتمام يمكن أن يكون قد اقترب للغاية منها، لكن نار الملك حين يغضب، تحرق عائلة برمتها مع ماشيتها وأملاكها... في شجاعته يستوطن الغزو، *والموت في غضبه*». بطريقة مشابهة يأمر إله الإسرائيليين شعبه من وسط البرق والرعد أن يمشي في كلّ الطرق التي يأمرهم بها «كي يزدهروا ويعيشوا طويلاً في الأرض». وهكذا تختفي قوة الطبيعة بحد ذاتها والشعور المعتمد عليها قبل القوة السياسية أو الأخلاقية! وفي حين يُعمى عبد الطبيعة ببريق الشمس، بحيث أنه مثل التتري الكاتشياني Katchinian Tatar يصلي لها: «لا تقتليني»، العبد السياسي من ناحية أخرى يُعمى بسناء المهابة الملكية، بحيث أنه يسجد أمامها كما لو أنه أمام قوة إلهية، لأنها تسيطر على الموت والحياة. كانت ألقاب الأباطرة الرومان، حتى بين المسيحيين أيضاً: «ألوهيتك»، «خلودك». لا، بل حتى اليوم فإنه بين المسيحيين «قداستك» و«عظمتك»، لقبا الإله وصفتاه، هما لقبان وصفتان للملوك. والحقيقة أن المسيحيين يحاولون تسويغ هذه الوثنية السياسية بفكرة أن الملك ليس غير ممثل الإله على الأرض، فاللّه ذاته هو ملك الملوك. لكن تسويغاً كهذا ليس غير خداع ـ ذاتي. ودون اعتبار أن قوة الملك هي قوة محسوسة، مباشرة، وحسية للغاية والتي تمثّل ذاتها، في حين أن قوة ملك الملوك هي قوة غير مباشرة ومتأمل بها ليس إلا ـ اللّه يُحدّد ويُنظر إليه على أنه حاكم للعالم، ككينونة ملكية أو سياسية عموماً، فقط حيث الكينونة الملكية تحتل، تؤثر، وتتحكم بالإنسان بحيث أنها تُعتبر من قبله على أنها *الكينونة الفائقة*. يقول مانو، «لقد شكّل براهما Brahma في بداية الزمن *عبقري العقاب* بجسد من النور الصافي *كابن خاص له*، لا بل حتى بوصفه المؤلف أو العدالة

الجنائية، على أنه *الحامي لكلّ الأشياء المخلوقة. الخوف من العقاب* يمكّن هذا الكون من التمتع بسعادته». وهكذا فالإنسان يجعل حتى عقاب شريعته الجنائية إلهياً، قوى تتحكّم - بالعالم، الشريعة الجنائية ذاتها شريعة للطبيعة، لا عجب أنه يجعل الطبيعة تتناغم بأكثر الدفء مع معاناته ومشاعره السياسية، لا، بل إنه حتى يجعل حفظ العالم يعتمد على حفظ عرش ملكي أو الأبرشية المقدسة. ما هو هام بالنسبة له، هو بطبيعة الحال هام لكلّ الكينونات الأخرى؛ ما يعتم عينه، فذلك أيضاً يعتم بريق الشمس؛ ما يهيج قلبه، فذلك أيضاً يحرّك السماء والأرض - كينونته بالنسبة له هي الكينونة الكونية، كينونة العالم، كينونة الكينونات.

الفقرة الثامنة والثلاثون: لماذا لا يمتلك الشرق تاريخاً حيّاً، متقدّماً مثل ذلك الذي للغرب؟[1] لأنه في الشرق الطبيعة بالنسبة للإنسان ليست

---

(1) بالمقابل، يقول نيتشه في عدو المسيح، الفقرة ستون: «لقد سرقت المسيحيّة منّا حصاد ثقافة العالم القديم، واستمرّت لتسرق منّا لاحقاً حصاد ثقافة *الإسلام*. فعالم الثقافة الإسلاميّة الرائع في إسبانيا، الأقرب *إلينا* أساساً، الذي يتحدّث إلى حواسنا وذوقنا على نحو أكثر مباشرية من اليونان وروما، كان قد تمّ *دوسه* (- لن أتحدّث عن نوع الأقدام -)، لماذا؟ لأنه كان نبيلاً، لأنه يرجع في أصوله إلى غرائز رجوليّة، لأنه قال نعم للحياة في كنوز الحياة الإسلاميّةmaurischen النادرة والرائعة!... لقد حارب الصليبيّون بعد ذلك شيئاً، كان الأجدر بهم أن ينبطحوا بذلّ أمامه، - ثقافة، كان حتى قرننا التاسع عشر سيعتقد أنه فقير جدّاً، «متأخر» جداً، بالمقارنة معها. - دون ريب، كانوا يريدون السلب: كان الشرق غنيّاً... لا تدعوا المرء يتحامل! الصليبيّون - قرصنة رفيعة، لا شيء أكثر! الفرسان الألمان، الفرسان الفايكنغ أساساً، كانوا ضمن عناصرهم هناك: وحدها الكنيسة عرفت جيّداً، لأي شيء يمكن *امتلاك* الفرسان الألمان... الفرسان الألمان، «سويسريّو» الكنيسة على الدوام، يخدمون على الدوام كلّ الغرائز الشرّيرة للكنيسة، لكنهم *يقبضون جيّداً*... إنه تحديداً بمساعدة السيوف الألمانيّة، الدم والشجاعة الألمانيين، استمرّت الكنيسة في حربها المميتة على كل ما هو نبيل فوق الأرض! مجموعة من أسئلة مؤلمة تبرز في هذه المرحلة. الفرسان الألمان معوزون فعلاً في تاريخ الثقافة العليا: يمكن

محجوبة بالإنسان، ولا بريق النجوم والأحجار الكريمة ببريق العين، ولا البرق والرعد الجويين «بالبرق والرعد» البلاغيين، ولا مسار الشمس بمسار الأحداث اليومية، ولا تبدّل فصول السنة بتبدّل الأزياء. الحقيقة أن الإنسان الشرقي يسجد في الغبار أمام عظمة القوة والكرامة الملكيتين، السياسيتين، لكن هذه العظمة ذاتها ليست سوى انعكاس للشمس والقمر؛ الملك هو غرض عبادته ليس ككينونة أرضية وبشرية، بل ككينونة سماوية وإلهية. لكن الإنسان يختفي بجانب الإله؛ فقط حيثما تُخلى الأرض من الآلهة، حيثما تصعد الآلهة إلى السماء وتتحوّل من كينونات حقيقية إلى أخرى متخيلة؛ هنالك فقط يمتلك البشر مكاناً ومتسعاً لأنفسهم، هنالك فقط يمكنهم أن يظهروا أنفسهم دون كابح كبشر ويطرحوا أنفسهم على هذا النحو. الإنسان الشرقي يقيم مع الإنسان الغربي العلاقة ذاتها التي يقيمها الفلاح مع سكّان المدينة. الأول يعتمد على الطبيعة، الأخير على الإنسان؛ الأول يقوده مقياس الضغط الجوي، الأخير بحالة سوق الأوراق المالية؛ الأول بمجموعة النجوم المتعادلة أبداً لدائرة البروج، الأخير بالعلامات المتقلبة أبداً للشرف، الأزياء، والرأي العام. وحدهم سكان المدن، من ثم، يصنعون التاريخ، وحده «الفخار» البشري مبدأ التاريخ، وحده الذي يضحي بقوة الطبيعي لصالح قوة الرأي، حياته لصالح اسمه،

للمرء تخمين السبب... المسيحيّة، الكحول ـ وسيلتا التحلّل *الكبيرتان*... ليس هنالك خيار، في مسألة المواجهة مع الإسلام والمسيحيّة، مثل ذلك أيضاً في المواجهة مع عربي ويهودي. القرار معطى سلفاً؛ ما من أحد حرّ في الخيار هنا. إما أن يكون المرء شاندالا أو لا يكون... «حرب لا رحمة فيها مع روما! سلم، صداقة مع الإسلام»: هذا ما شعرت به تلك الروح العظيمة، العبقري بين أباطرة الألمان، فريدريش الثاني، وهذا ما *فعله*. ماذا؟ هل على الألماني أن يكون عبقريّة أوّلاً، روحاً حرّة أوّلاً، كي يمتلك مشاعر محتشمة؟ أنا لا أستوعب، كيف استطاع ألماني الشعور يوماً أنه مسيحي...»[مترجم].

وجوده المادي لصالح وجوده في فم وفي تذكار الأجيال التي ستأتي ـ وحده قادر على أفعال تاريخية.

الفقرة التاسعة والثلاثون: وفقاً لأثيناوس Athenæus، الكاتب الإغريقي للمسرحيات الكوميدية، يتوجه أنكساندريدس Anxandrides إلى المصريين بما يلي: «أنا لا أناسب مجتمعكم؛ أخلاقنا وقوانينا لا تتفق، ـ أنتم تعبدون الثور الذي أضحي به للآلهة؛ [سمكة ـ أفعى ـ مترجم.] الأنقليس بالنسبة لكم إله عظيم، لكنه بالنسبة لي طعام لذيذ عظيم؛ أنتم تتجنبون الخنزير، أنا أستمتع به مع التوابل؛ أنتم توقرون الكلب، أنا أضربه إذا نهش لقمة مني؛ أنتم تجفلون إذا أصاب شيء قطة، أنا أسعد بذلك وأنزع عنها جلدها؛ أنتم تعلقون أهمية كبيرة على الفأر الزاحف، أنا لست كذلك». هذا الخطاب يشخّص تماماً التناقض بين الاعتبار للطبيعة المقيد وغير المقيد، أي، بين الاعتبار للطبيعة الديني، والاعتبار اللاديني، الحر، البشري. هناك الطبيعة غرض للعبادة، هنا غرض للمتعة؛ هناك يتواجد الإنسان لأجل الطبيعة، هنا الطبيعة لأجل الإنسان، هناك هي غاية، هنا هي وسيلة؛ هناك تقف فوق الإنسان، هنا تحته.[1] لهذا السبب بالذات الإنسان هناك غير مركزي eccentric، خارج ذاته، خارج دارة مصيره التي تشير له

---

(1) مع ذلك، فالملوك الأصليون يختلفون تماماً عن الملوك الشرعيين، كم يُدعون. الأخيرون، باستثناء بعض الأمثلة النادرة، هم أفراد عاديون، غير هامين بحد ذاتهم، في حين أن الأولين كانوا أفراداً استثنائيين، *تاريخيين*. إن تأليه البشر المتميزين، خاصة بعد موتهم، يشكّل بذلك الانتقال الأكثر طبيعية من الأديان الطبيعية الصحيحة إلى الأديان الميثولوجية والأنثروبولوجية، مع أنها قد تحدث أيضاً في الوقت ذاته مع التأليه الطبيعي. مع ذلك، فإن تأليه البشر المتميزين ليس حكراً على الأزمنة الخرافية. وهكذا فقد كان السويديون يؤلهون ملكهم إيريك أيام المسيحية وقد ضحوا لأجله بعد موته.

فقط إلى ذاته؛ هنا، من ناحية أخرى، هو مراع لمشاعر الآخرين، رصين، داخل ذاته، واع ـ ذاتياً. هناك ينزل الإنسان بمستواه باستمرار حتى إلى مجامعة الحيوانات (وفقاً لهيرودوتس Herodotus)، كي يثبت تواضعه الديني أمام الطبيعة؛ لكنه هنا يرتفع بوعي تام لقوته وكرامته حتى الاندماج مع الآلهة كدليل ملفت على أنه حتى في مسارات الآلهة السماوية ليس غير الدم البشري، وأن الدم الأثيري الخاص بالآلهة ليس غير المخيلة الشعرية التي لا تصح في الواقع وفي التجربة العملية.

الفقرة الأربعون: كما *يظهر* العالم، كما *تظهر* الطبيعة للإنسان، كذلك تكون، أي، بالنسبة له، وفقاً لمخيلته؛ إن أحاسيسه وتخيلاته إنما هي بالنسبة له على نحو مباشر وغير واع معيار الحقيقة والواقع؛ والطبيعة *تظهر بالنسبة له تماماً كما يكون هو ذاته*. حالما يتصوّر الإنسان أنه على الرغم من الشمس والقمر، السماء والأرض، النار والماء، النباتات والحيوانات، تتطلب حياة الإنسان الاستخدام، بل حتى الاستخدام التام لقواه الخاصة؛ حالما يتصوّر أن «البشر الفانين يتذمرون دون وجه حق من الآلهة، وأنهم هم *أنفسهم رغم القدر، عبر التهور، يخلقون بؤسهم*»، أن عواقب الرذيلة والحماقة هي المرض، التعاسة والموت، وأنه، نتيجة لذلك، فإن تلك القوى التي تؤثّر بقسمة الإنسان، هما العقل والإرادة؛ نتيجة لذلك، حالما لا يعود الإنسان يشبه المتوحش، يكون كينونة محكومة بعادات الانطباعات والعادات اللحظية، بل يصبح كينونة تحدد ذاتها بالمبادئ، قوانين الحكمة، شرائع العقل؛ أي، كينونة مفكرة، ذكية ـ عندها تظهر وتكون بالنسبة له الطبيعة، العالم أيضاً *ككينونة تعتمد على العقل والإرادة، ومتأثرة بهما*.

الفقرة الحادية والأربعون: عندما يرتفع الإنسان بإرادته وعقله فوق

الطبيعة ويصبح خارقاً للطبيعة، يصبح إلهه من ثم أيضاً كينونة خارقة للطبيعة. عندما يوطد الإنسان أركان ذاته كحاكم «على الأسماك في البحار، وعلى الطير في الجو، وعلى الماشية، وعلى كل الأرض، وعلى كل شيء زاحف يدب فوق الأرض»، يكون حكم الطبيعة بالنسبة له عندئذٍ *الفكرة الأرفع، الكينونة الأرفع*؛ نتيجة لذلك فإن غرض عبادته، ديانته، خالق الطبيعة، لأن الخلق هو عاقبة ضرورية، أو بالأحرى، افتراضية مسبقة، للحكم. حين لا يكون رب الطبيعة هو مؤلفها أيضاً، فهي تكون من ثم مستقلة عنه بالنسبة لأصلها ووجودها، فإن قوته محدودة وناقصة؛ ـ لأنه إذا *كان قادراً* على خلقها، لماذا لم يقم بخلقها؟ ـ حكمه هو حكم مُغتصب، ليس حكماً أصيلاً، شرعياً. وحده ما أنتجه أنا وأصنعه يكون بالتمام ضمن نطاق قوتي. فقط من المرجعية يجب اشتقاق حق الملكية. الولد لي، لأني أنا أبوه. نتيجة لذلك فقط في الخلق يتم الإقرار بالحكم، إدراكه، واستنزافه. والحقيقة أن آلهة الوثنيين كانت أيضاً سادة الطبيعة، لكنهم ليسوا خالقين لها، نتيجة لذلك فقد كانوا *ملوكاً* للطبيعة دستوريين، محددين، لكنهم ليسوا *مطلقين*، أي، *لم يكن الوثنيون بعد خارقين للطبيعة مطلقين، غير مشروطين، راديكاليين*.

الفقرة الثانية والأربعون: لقد أعلن الربوبيون عقيدة وحدانية الإله، عقيدة مستوحاة من أصل خارق للطبيعة، دون اعتبار لأن مصدر عقيدة وحدانية الإله يوجد في الإنسان، أن مصدر وحدانية الإله هو وحدانية الضمير والعقل البشريين. العالم ينتشر أمام عيني في كثرة وتنوعية لا نهاية لهما، لكن مع ذلك فإن كل هذه الأغراض المتنوعة والتي لا حصر لها: الشمس، القمر والنجوم، السماء والأرض، القريب والبعيد، الحاضر والغائب،

مشتملة في ذهني، رأسي. هذه الكينونة للعقل أو الضمير البشريين، هي رائعة وخارقة للطبيعة بالنسبة للإنسان المتدين، أي، غير المتعلّم، هذه الكينونة التي هي غير مقيدة بأية حدود للزمان والمكان، والتي تضم كل الأشياء والكينونات، دون أن تكون هي ذاتها غرضاً أو كينونة مرئية ـ هذه الكينونة توضع، من قبل عقيدة الإيمان بإله واحد، على رأس العالم، وتجعل *علة* له. اللّه يتكلم، اللّه *يفكّر بالعالم* وهو *يكون*، إنه يقول إنه لا يكون، إنه يفكّر ويرغب أن لا يوجد، وهو لا يوجد، أي، أنا أستطيع في مخيلتي أن أجعل في الإرادة كل الأشياء ونتيجة لذلك العالم ذاته بأن تأتي وتختفي، بأن تنشأ وتعبر. وكون اللّه خلق أيضاً العالم من العدم، وهو يقحمه من جديد في العدم، إذا ما أراد، فهو ليس سوى تشخيص *القوة البشرية للتجريد والمخيلة*، والذي يؤهلني بالإرادة على تخيل العالم على أنه موجود أو غير موجود، ولنثبت أن ننكر وجوده. هذا *اللا* ـ وجود *الذاتي* أو *المتخيل* للعالم، يُجعل منه على يد عقيدة التوحيد الإلهي *اللا* ـ وجود الخاص بها *الموضوعي*، الحقيقي. عقيدة تعددية الآلهة والدين الطبيعي بشكل عام يجعلان الأغراض الحقيقية أغراضاً متخيلة. عقيدة التوحيد الإلهي، من ناحية أخرى، تجعل الأغراض والأفكار المتخيلة أغراضاً حقيقية، أو بالأحرى جوهر العقل، الإرادة والمخيلة الكينونة الأكثر واقعية، المطلقة، الفائقة. يقول اللاهوتي، إن قوة اللّه تمتد بقدر ما تمتد قوة الإنسان التخيلية، لكن أين هو حد هذه القوة؟ ما هو المستحيل على المخيلة؟ أستطيع أن أتخيل كل شيء يكون، على أنه غير متواجد، وكل شيء غير متواجد على أنه حقيقي؛ وهكذا أستطيع تخيل «هذا» العالم على أنه غير متواجد، ومن ناحية أخرى، عوالم أخرى لا تحصى على أنها

متواجدة. ما هو مُتخيّل على أنه حقيقي هو ممكن. لكن اللّه هو الكينونة التي لا شيء عندها *مستحيل*، فهو خالق عوالم لا تحصى، وبقدر ما تكون قوته هي المعنية، فإن *الاحتمالية من كل الاحتماليات*، *من كل شيء يمكن تخيله*، أي، في الواقع، فهو ليس غير تحقيق أو تشخيص المخيلة، العقل، والتأمل البشرية، الفكر أو متخيّل باعتباره حقيقة، لا، بل باعتباره الكينونة الأكثر واقعية، باعتباره الكينونة المطلقة.

الفقرة الثالثة والأربعون: الربوبية، إذا ما دعوناها بشكل صحيح، أو الاعتقاد بوحدانية الإله، تنشأ فقط حيث يعزو الإنسان الطبيعة *إلى ذاته* فحسب، لأنها تعاني هي ذاتها من أنها تُستخدم دون *إرادة ووعي*، ليس فقط لوظائفه الضرورية، العضوية، بل أيضاً لأهدافه ومسراته الاعتباطية، المدركة، وحيث *يجعل من هذه العلاقة* جوهرها، يجعل من نفسه نتيجة لذلك هدف الطبيعة، *مركزها*، *ووحدتها*.[1]وحيث تجعل الطبيعة *غايتها خارج ذاتها*، فهي تجعل بالضرورة أيضاً *علتها وبدايتها خارج ذاتها*؛ وحيث تتواجد فقط *لأجل كينونة أخرى*، فهي تتواجد بالضرورة *من قبل كينونة أخرى*، وأنه من قبل كينونة نيتها أو غايتها زمن خليقتها كان الإنسان، حيث أن تلك الكينونة كانت ستتمتع بالطبيعة وتستخدمها لمصلحتها. نتيجة لذلك تتزامن بداية الطبيعة مع اللّه فقط حيث تتزامن *غايتها* مع *الإنسان*، أو بكلمات أخرى، المذهب القائل إن اللّه هو *خالق العالم* إنما يمتلك

(1) سوف أطابق هنا الإغريق مع الإسرائيليين، في حين أني في جوهر *المسيحية* أناقض بين أحدهما والآخر. وليس هذا بأية حال تناقضاً منطقياً، لأن الأشياء التي تتطابق بالمقارنة مع شيء ثالث، تكون حين يقارن أحدها بالآخر مختلفة. إضافة إلى ذلك، فمتعة الطبيعة تتضمن أيضاً *متعتها الجمالية*، *النظرية*.

مصدره ومعناه في المذهب القائل إن اللّه هو غاية الخليقة. حين تشعر بالخجل من الاعتقاد بأن العالم مخلوق، صُنع لأجل الإنسان، فيجب أن تشعر من ثم بالخجل من الاعتقاد بأنه *مخلوق*، *مصنوع بأية حال*. وحيث هو مكتوب: «في البدء خلق اللّه السموات والأرض» [سفر التكوين 1:1 ـ مترجم]، مكتوب هناك أيضاً: «فصنع اللّه النيرين الكبيرين.[وصنع أيضاً] الكواكب وجعلها [اللّه] في جلد السماء *لتضيء على الأرض*. *لتحكم على النهار والليل*» [سفر التكوين 1: 16 وما بعد ـ مترجم]. حين تعلن أن الاعتقاد بالإنسان كغاية الطبيعة على أنه فخار بشري، يجب أن تعلن من ثم أيضاً أن *الاعتقاد بخالق الطبيعة على أنه فخار بشري*. إن ذلك النور الذي يشع لأجل الإنسان هو نور اللاهوت، ذلك النور الذي يتواجد حصرياً فقط لأجل الكينونة التي ترى، إنما يفترض مسبقاً كينونة ترى كعلة لها.

الفقرة الرابعة والأربعون: إن الكينونة الروحانية التي يضعها الإنسان فوق الطبيعة ويفترض مسبقاً أنها مؤسسها وخالقها، ليست غير *الجوهر الروحاني للإنسان بالذات*، الذي هو، مع ذلك، يظهر له كجوهر *آخر*، *مختلف* عنه وغير *قابل لأن يُقارن به*، لأنه يجعل منه *علة الطبيعة*، علة المعلولات التي لا يمكن لذهنه، إرادته وعقله أن تنتجها، ولأنه نتيجة لذلك يضم إلى ذلك الجوهر الروحاني للإنسان، جوهر *الطبيعة الذي هو مختلف*.[1] إنها الروح الإلهية التي تجعل العشب ينمو، التي تشكّل

---

(1) يدعو أحد الكتّاب الكنسيين الإنسان «رابط كل شيء» (syndesmon hapanton)، لأن اللّه فيه أراد أن يشمل الكون في وحدة، ولأنه فيه، نتيجة لذلك، كل شيء كما في غايتها إنما هي موحدة، وتأتي نتيجتها لصالحه. والإنسان حتماً، كوجه الطبيعة الذي يأخذ الطابع الفردي، هو نتيجة لها، لكن ليس بالمعنى المعادي للطبيعة والفائق للطبيعة للغائية واللاهوت.

الطفل في الرحم، التي تمسك بالشمس وتحركها في مسارها، التي تكوّم الجبال، تأمر الريح، تحصر البحر ضمن حدوده. ما هو العقل البشري مقارنة بهذه الروح! كم هو صغير، كم هو محدود، كم هو عبثي! حين يرفض العقلاني نتيجة لذلك تجسّد اللّه، اتحاد الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية، فهو يفعل ذلك بشكل خاص لأن فكرة اللّه في رأسه *تخفي* فقط فكرة الطبيعة، خاصة فكرة الطبيعة كما تم الكشف عنها للعين البشرية من قبل منظار علم الفلك. كيف يمكن ـ هكذا يهتف مثاراً ـ كيف يمكن لتلك الكينونة العظيمة، اللامحدودة، الكونية، التي تمتلك تمثيلها ومعلولها الكافيين فقط في الكون العظيم، اللامتناهي، أن تنزل لأجل الإنسان إلى الأرض، التي تختفي حتماً في العدم أمام عظمة الكون الذي لا يمكن مقارنة عظمته وكماله؟ يا للمخيلة التافهة، الحقيرة، «البشرية»! كي تركّز اللّه على الأرض، كي تقحم اللّه في الإنسان، إنما هو تقريباً الشيء ذاته أن تكثّف المحيط في قطرة واحدة، أن تختزل دائرة زحل إلى خاتم إصبع. الحقيقة أنها إلى حد ما فكرة ضيقة أن تعتقد أن الكينونة الكونية محدودة فقط بالأرض أو بالإنسان، وأن تعتقد أن الطبيعة موجودة فقط لأجله، أن الشمس تشع فقط لأجل العين البشرية. مع ذلك، فأنت لا ترى، أيها العقلاني قصير النظر، أنها ليست فكرة اللّه، بل فكرة *الطبيعة*، التي داخل ذاتك تعارض الاتحاد بين الإله والإنسان، وتظهر أنه تناقض لا معنى له؛ أنت لا ترى أن مركز الاتحاد، [*tertium comparationis* عبارة لاتينية تعني «[الجزء] الثالث من المقارنة، وهي الصفة التي يشترك بها شيئان

[ملاحظة من المترجم: συνδέσμων ηαπάντων تعني باليونانية، الروابط في كل الأمكنة].

تتم مقارنتهما ـ مترجم]، بين اللّه والإنسان ليست تلك الكينونة التي تعزو إليها على نحو مباشر أو غير مباشر قوة الطبيعة وآثارها، بل بالأحرى تلك الكينونة التي ترى وتسمع، لأنك ترى وتسمع، التي تمتلك وعياً، عقلاً وإرادة، لأنك تمتلك هذه المَلَكات، أو، بكلمات أخرى، تلك الكينونة التي تميزها عن الطبيعة، لأنك تميّز ذاتك عنها. ما الذي يمكنك، من ثم، الاعتراض عليه فعلياً إذا ما ظهرت هذه الكينونة كإنسان حقيقي أمام عينيك؟ كيف يمكنك أن ترفض النتائج إذا ما كنت ملتزماً بالمقدمات؟ كيف يمكنك أن تنكر الابن إذا ما كنت تعترف بالآب؟ إذا كان الإله ـ الإنسان [كلمة واحدة هنا بالطبع. مترجم] بالنسبة لك هو خليقة المخيلة البشرية والتأليه ـ الذاتي، فعليك من ثم أن تعترف، أيضاً، أن خالق الطبيعة هو خليقة المخيلة البشرية وتمجيد ـ الذات على الطبيعة. حين ترغب بكينونة دون أي تجسيد، دون أية إضافات بشرية، سواء أكانت إضافات العقل، أو القلب، أو المخيلة، كن عندئذٍ شجاعاً ومنسجماً مع نفسك بما يكفي لأن تتخلى عن اللّه بالكامل، وأن لا تتوجه إلى غير الطبيعة النقية، العارية، الملحدة، باعتبارها الأساس الأخير لوجودك. فطالما أنت تعترف *بفرق*، طالما أنت تجسّد في اللّه فرقك الخاص، *طالما أنت تجسد جوهرك وطبيعتك الخاصين في كينونة كونية وأولية*؛ *لأنه طالما أنت لا تمتلك ولا تعرف في التمايز عن الطبيعة البشرية أية كينونة أخرى غير الطبيعة، وهكذا، من ناحية أخرى، أنت لا تملك ولا تعرف أية كينونة أخرى في التمايز عن الطبيعة غير الكينونة البشرية.*

الفقرة الخامسة والأربعون: إن مفهوم جوهر الإنسان ككينونة موضوعية مختلفة عن الإنسان، أو، باختصار، التشخيص للجوهر البشري، تجعل

افتراضاً لها التجسّد للكينونة الموضوعية التي هي مختلفة عن الإنسان، أي، مفهوم الطبيعة كما لو أنها كينونة بشرية.[1] نتيجة لذلك فالإرادة والعقل يظهران للإنسان كقوى أو علل أولية للطبيعة فقط لأن الآثار غير المقصودة للطبيعة تظهر له في ضوء عقله على أنها آثار مقصودة، كغايات وأهداف؛ والطبيعة ذاتها نتيجة ذلك على أنها كينونة ذكية (أو على الأقل كشيء مجرّد للعقل). وحيث أن كل شيء مرئي للشمس ـ إله الشمس، «هليوس Helios»، يسمع ويرى كل شيء ـ لأن الإنسان يرى كلّ شيء في ضوء الشمس، وهكذا فإن كل شيء في ذاته تم التفكير به، لأن الإنسان يفكّر به؛ عمل للعقل، لأنه بالنسبة له غرض عقله. لأنه يقيس النجوم ومسافاتها، يتم قياسها؛ لأنه يستخدم الرياضيات كي يفهم الطبيعة وقوانينها، فهي تُستخدم أيضاً على نتاجها؛ لأنه يرى غاية حركة معينة، فإن نتيجة تطور معين، وظيفة عضو معين، هذه الغاية، الوظيفة أو النتيجة هي في ذاتها متوقعة؛ لأنه يستطيع أن يتصور نقيض موقع أو اتجاه لجرم سماوي، لا بل حتى الاتجاهات الأخرى التي لا تعد ولا تحصى، بينما في الوقت ذاته فهو يتصور أنه إذا تم تغيير هذا الاتجاه، فإن سلسلة أيضاً من عواقب مثمرة، خيرة كانت ستصبح مستحيلة، وهكذا فإنه يعتبر أن هذه السلسلة من العواقب على أنها الباعث على ذلك الاتجاه بالذات: نتيجة لذلك فإن مثل هذا الاتجاه كان قد تم اختياره فعلياً وفي الأصل بحكمة باهرة، وفقط بالنظر إلى عواقبه الخيرة، من الاتجاهات الكثيرة الأخرى

(1) هذا الاتحاد، أو الاندماج «*للمعنوي*» [أو الأخلاقي ـ مترجم] «*والمادي*» [أو الفيزيائي ـ مترجم] للكينونة البشرية وغير البشرية، إنما ينتج *ثالثة*، والتي هي ليست طبيعة ولا إنسان، لكنها التي تشارك في كليهما، مثل حيوان برمائي، والتي هي، بسبب هذا السر لطبيعته بالذات، وثن للسرانية والتأمل.

التي تتواجد فقط في عقل الإنسان. وهكذا فإن مبدأ التفكير هو بالنسبة للإنسان على نحو مباشر ودونما تمييز إنما هو مبدأ الوجود. الشيء فكرة، الشيء موجود؛ فكرة الغرض، جوهره (الأبستريوري *a posteriori* أو الأبريوري *a priori*). يفكّر الإنسان بالطبيعة على غير ما هي تكون عليه بالفعل؛ فلا عجب أن يفترض مسبقاً كعلة لها وعلة لوجودها كينونة أخرى غير ذاتها، كينونة تتواجد فقط في ذهنه، لا بل هي أيضاً مجرد جوهر لذهنه. الإنسان يعكس النظام الطبيعي للأشياء، إنه يؤسس العالم بالمعنى الدقيق للكلمة على رأسه، إنه يجعل قمة الهرم قاعدته ـ الشيء الأول في أو لأجل الرأس، السبب الذي يفسر أن شيئاً ما يكون، الشيء الأول في الواقع، العلة التي من خلالها يتواجد. حافز شيء يسبق في الذهن الشيء ذاته. هذا هو السبب الذي يفسّر لماذا بالنسبة للإنسان فإن جوهر العقل أو الذكاء، جوهر التفكير ليس فقط منطقياً بل أيضاً مادياً، هو الكينونة الأولى، الابتدائية.

الفقرة السادسة والأربعون: يقوم سر الغائية على *التناقض* بين *ضرورة الطبيعة والإرادة الاعتباطية للإنسان*، بين الطبيعة *كما تكون هي فعلياً* وبين الطبيعة *كما يتخيلها الإنسان*. لو كانت الأرض قد وضعت في موقع آخر، مثلاً، وضعت حيث هو المريخ اليوم، لكان كل شيء سيفنى بسبب الحرارة التي لا تحتمل. كم هو حكيم، إذاً، أن الأرض موضوعة حيث تظهر تماماً متناسبة بأفضل ما يمكن مع خاصيتها. لكنممَ تتكون هذه الحكمة؟ فقط في التناقض، في التعارض مع *الحماقة البشرية*، التي على نحو اعتباطي تضع في الفكر الأرض في مكان آخر غير الذي تكون فيه في الحقيقة. حين *تقسّم* أولاً ما هو في الطبيعة غير *قابل لأن ينفصل*، كما على سبيل المثال الموقع الفلكي لجرم سماوي عن صفته المادية، عندئذٍ بالتأكيد فإن

الوحدة في الطبيعة يجب أن تظهر لك *بعد ذلك* على أنها نفعية، ضرورة، على أنها *خطة*، الموقع الحقيقي والضروري لكوكب يتوافق مع طبيعته على النقيض من الموقع غير المناسب الذي فكّرت به أو اخترته، باعتباره الموقع *المعقول* الذي اختير بشكل مبرّر وانتقي بحكمة. «لو كان للثلج لون أسود، أو إذا عمّ مثل هذا اللون في مناطق القطب الشمالي، فإن كل الأقطار القطبية الشمالية كانت ستبدو صحراء كئيبة، غير مناسبة للحياة العضوية. وهكذا فإن ترتيب ألوان الأجسام يقدّم أحد الأدلة الأجمل على الترتيب الحكيم للعالم». وحتماً، إذا لم *يبدل* الإنسان *الأبيض بالأسود*، إذا لم تتخلّص *الحماقة البشرية* بشكل اعتباطي من الطبيعة، لم يكن *لحكمة إلهية* أن تتحكم بالطبيعة.

الفقرة السابعة والأربعون: «من قال للطائر إن عليه فقط أن يرفع ذيله إن أراد الطيران نحو الأسفل، أو أن يخفض ذيله حين يريد أن يحلّق؟ لا بدّ أنه أعمى بالكامل، الذي هو، في مراقبة طيران الطيور، لا يتصوّر أية حكمة عليا *التي فكّرت مكانهم*». من المؤكّد أنه أعمى، ليس لأجل الطبيعة، بل لأجل الإنسان، الذي يجعل من طبيعته الأصل للطبيعة، قوة العقل القوة الأصلية، الذي يجعل طيران الطيور يعتمد على *التبصّر* في القوانين الميكانيكية للطيران، والذي *يرفع* فكرته التي تم تجريدها عن الطبيعة إلى *قوانين* والتي *تطبقها* الطيور على طيرانها؛ تماماً مثلما أن الفارس يطبق قواعد فن ركوب الخيل، أو السبّاح قواعد فن السباحة؛ مع الفارق الوحيد هو أنه بالنسبة للطيور فإن تطبيق فن الطيران يُخلق معهم. لكن طيران الطيور غير مؤسس على فن. الفن يكون فقط حيث يوجد *نقيض* الفن أيضاً، حيث يؤدي عضو وظيفة والتي لا ترتبط به لا بالضرورة ولا على نحو مباشر،

التي لا تستنزف جوهره، وهي مجرّد وظيفة محددة *بجانب العديد من* الوظائف *الأخرى الحقيقية أو الممكنة* للعضو ذاته. لكن الطائر لا يستطيع أن يطير غير كما يفعل؛ كما أنه ليس حرّاً في أن لا يطير؛ إنه يجب أن يطير. الحيوان يعرف كيف يعمل فقط ما هو قادر على فعله، ولهذا السبب بالذات يمكنه أن يعمل هذا الشيء الوحيد على نحو تام للغاية، ببراعة للغاية، على نحو لا يمكن تجاوزه للغاية، لأنه لا يعرف أي شيء غيره، لأن قدرته مستنزفة في هذه الوظيفة *الواحدة*، لأن هذه الوظيفة الواحدة *متماثلة مع طبيعته*. حين نكون نتيجة لذلك غير قادرين على تفسير أفعال ووظائف الحيوانات، خاصة تلك الحيوانات الأدنى، التي هي معطاة دوافع فنية معينة، دون افتراض مسبق للعقل والذي فكّر مكانها، فهذا فقط لأننا نعتقد أن *أغراض* نشاطها هي أغراض بالنسبة لها *بالطريقة ذاتها* كما هي أغراض لوعينا وعقلنا. حالما نعتبر أن أفعال الحيوانات على أنها *أعمال* فن، على أنها *أعمال اعتباطية*، يجب أن نعتبر بالضرورة أيضاً أن العقل علّة لها، لأن عمل الفن يفترض مسبقاً الاختيار، النية، العقل، ومن ثم، كما نعرف من التجربة الحيوانات لا تفكّر، أن كينونة *أخرى تفكّر لصالحها* [1]. «هل تعرف كيف تنصح العنكبوت كيف عليه أن يحمل ويثبّت الخيوط من شجرة إلى أخرى، من سطح منزل إلى آخر، من أعلى هذه الضفة من النهر إلى مكان آخر على الضفة الأخرى؟» حتماً لا: لكنك لا تعتقد بالفعل أن ثمة حاجة إلى أية نصيحة في هذا المثال، أن العنكبوت يكون في الوضع ذاته الذي

---

(1) مصورة من هذا المنظور لخالق الطبيعة فإنها نتيجة لذلك ليست غير جوهر الطبيعة، التي هي، بوساطة عملية تجريد عن الطبيعة، كان قد تم تمييزها والقيام بعملية لتجريدها عن الطبيعة، وبهذا النحو تكون غرضاً للحواس وبقوة الطبيعة تم تحويلها إلى كينونة بشرية أو شبيهة ـ بالإنسان، وهكذا تصبح شعبية، تُجسّد، وتُشخص.

تكون أنت فيه، إذا كان عليك أن تحلّ معضلة *بشكل نظري*، أنه بالنسبة له، كما بالنسبة لك، هنالك أي فرق بين «هذه» الضفة و«تلك» الضفة؟ بين العنكبوت والغرض الذي يثبت إليه خيوط شبكته، هنالك رابط ضروري بضرورة الرابط بين عظمك وعضلتك؛ لأن الغرض دونه هو بالنسبة له ليس غير الداعم لشبكة حياته، مثلما هو دعم مخالبه. العنكبوت لا يرى ما تراه أنت؛ فكلّ الفواصل، الفوارق، والمسافات التي هي، أو على الأقل *تلك* التي تتصورها عينك العقلية، لا تتواجد بالنسبة له البتة. ما هو بالنسبة لك *معضلة نظرية* غير قابلة للحل إذاً، يحلها العنكبوت دون أي عقل، ومن ثم *دون كل تلك المصاعب* التي تتواجد لعقلك فقط. «من أخبر قمل الكرمة أن يجد طعامه في خريف السنة على الغصن والبرعم بوفرة أكثر من الورقة؟ من أظهر له الطريق إلى البرعم وإلى الغصن؟ لأن قملة الكرمة التي ولدت على الورقة، فالبرعم ليس مكاناً بعيداً بل غير معروف بالكامل. أنا أعبد خالق قملة الكرمة ودودة القرمز التي تبقى صامتة». عليك أن تصمت حتماً حين تجعل من قمل الكرمة ودودة القرمز مبشرين بالربوبية، إذا كنت تعبدهم بأفكارك، لأنه فقط أن البرعم بالنسبة لقملة الكرمة *المرئي من منظور الإنسان* هو منطقة *بعيدة وغير معروفة*، لكن ليس لقملة الكرمة ذاتها، التي بالنسبة لها الورقة والبرعم ليسا غرضين *بحد ذاتيهما*، بل فقط كمادة يمكن تمثلها وتُربط بها كيميائياً. نتيجة لذلك إنه وحده *انعكاس عينك* الذي يظهر لك الطبيعة على أنها من *عمل عين ما*، الذي يجبرك على أن تشتق الخيوط التي يسحبها العنكبوت من *جزئه الخلفي*، من *رأس* كينونة مفكّرة. الطبيعة بالنسبة لك مجرد مشهد، بهجة للعين؛ لذلك أنت تعتقد أن ما يبهج عينك، يحكم الطبيعة ويحركها. وهكذا فأنت تجعل *النور*

السماوي الذي تظهر فيه لك، *الكينونة السماوية* التي خلقتها؛ أشعة العين عتلة الطبيعة؛ العصب *البصري* العصب *الحركي* للكون. أن تشتق طبيعة من خالق حكيم هو أن تنتج أولاداً بنظرة؛ أن تشبع الجوع بعطر الطعام؛ أن تحرّك الصخور بتناغم الأصوات. يشتق الغرينلاندي أصل سمك القرش من البول البشري لأن الإنسان يشتم فيه رائحته، هذا الأصل الحيواني له الأساس ذاته الذي للأصل الكوزمولوجي للربوبي، حين يشتق الطبيعة من العقل، لأنها تترك على الإنسان انطباع العقل، والنية. من المحتم أن تجلّي الطبيعة بالنسبة لنا هو سبب، لكن علة هكذا تجلٍ تشكل سبباً ضئيلاً مثلما أن تكون علة النور هي النور.

الفقرة الثامنة والأربعون: لماذا تنتج الطبيعة وحوشاً؟ لأن نتيجة التشكيل بالنسبة لها ليست غرض هدف موجود مسبقاً. لماذا الأطراف الزائدة عن العدد؟ لأنها ليست عدداً. لماذا تضع في جهة اليد اليسرى ما يقع عموماً إلى جهة اليد اليمنى، والعكس بالعكس؟ لأنها لا تعرف ما هو يمين وما هو يسار. لذلك فالوحوش براهين شعبية، التي لهذا السبب بالذات تم الإلحاح من قبل الملحدين القدامى، بل حتى من قبل أولئك الربوبيين إذ حرروا الطبيعة من رعاية اللاهوت، كي يثبتوا أن نتاجات الطبيعة هي نتاجات غير متوقعة، غير مقصودة، غير إرادية؛ لأن كل الأسباب التي تم تقديمها لصالح تفسير الوحوش، حتى تلك التي لأتباع المبدأ الطبيعي الأكثر حداثة، التي وفقاً لها هم مجرد عواقب لأمراض عند الجنين، كانت سيُتخلّص منها، إذا كان سيتم ربط مع القوة الخلاقة أو المنتجة للطبيعة في الوقت ذاته الإرادة، العقل، التروي والوعي. لكن مع أن الطبيعة لا ترى، فهي ليست *عمياء*؛ مع أنها لا تعيش (بمعنى الحياة البشرية، أي، الذاتية، المحسوسة)، فهي

ليست ميتة؛ ومع أنها لا تنتج وفقاً لأهداف، فنتاجاتها تظل غير *تصادفية*؛ لأنه حيثما يحدد الإنسان الطبيعة على أنها ميتة وعمياء، وأن نتاجاتها تصادفية، فهو إنما يحددها على هذا النحو بما *يتناقض مع ذاته*، ويعلن أنها ناقصة لأنها لا تمتلك ما يمتلكه هو. الطبيعة تعمل وتنتج في كل مكان فقط في ومع *سياق* ـ سياق هو سبب بالنسبة للإنسان، لأنه حيثما يتصور سياقاً، يجد معنى، مادة للتفكير، «سبباً كافياً»، منظومة ـ فقط من ومع *ضرورة*. لكن ضرورة الطبيعة أيضاً ليست بشرية، أي، ليست منطقية، ميتافيزيقية، رياضياتية، وبشكل عام ليست تجريدية؛ لأن الكينونات الطبيعية ليست خلاقاً للفكر، ليست شخصيات منطقية أو رياضياتية، بل كينونات حقيقية، محسوسة، فردية؛ إنها ضرورة حسية ونتيجة لذلك فهي غريبة الأطوار، استثنائية، غير نظامية، التي هي، تبعاً لهذه الشذوذات للمخيلة البشرية، تظهر حتى كحرية، أو على الأقل كنتاج لإرادة حرة. يمكن فهم الطبيعة عموماً فقط من *خلال ذاتها*؛ إنها تلك الكينونة التي *لا* تعتمد فكرتها على كينونة *أخرى*؛ إنها وحدها تعترف بالتمايز بين ما يكونه شيء *في ذاته* وما يكونه *لأجل تصورنا*؛ مع أننا نقارن إظهاراتها ونسميها مع إظهارات بشرية مشابهة من أجل أن نجعلها مفهومة بالنسبة لنا، ومع أننا بشكل عام نطبّق، أو نجبر على أن نطبق عليها، الانطباعات والأفكار البشرية، مثل النظام، الهدف، بما يتفق مع طبيعة لغتنا، التي هي قائمة فقط على المظهر الذاتي للأشياء.

الفقرة التاسعة والأربعون: إن الإعجاب الديني بالحكمة الإلهية في الطبيعة هو مجرد حادث عرضي للحماس؛ إنها تشير فقط إلى *الوسيلة*، لكنها تُخمد في التفكير بأهداف الطبيعة. كم هي مدهشة شبكة العنكبوت،

كم هو مدهش قمع نملة الأسد في الرمل! لكن ما هو الهدف من تلك الترتيبات الحكيمة؟ لا شيء غير التغذي - هدف ينزل الإنسان قيمته فيما يتعلق بذاته إلى مجرّد وسيلة. قال سقراط، «آخرون» - لكن هؤلاء الآخرون هم حيوانات أو بشر بهائميون - «آخرون يعيشون كي يأكلوا، لكن أنا آكل كي أعيش». كم هي رائعة الوردة، كم هو مثير للإعجاب هيكلها! لكن ما هو الهدف من هذا الهيكل، من هذه الروعة؟ فقط لتعظيم وحماية الأعضاء التناسلية، التي الإنسان في ذاته يخفيها بدافع الخجل، أو يبترها بدافع الحماسة الدينية.[1] «*إن خالق قمل الكرمة ودود القرمز*»، الذي يعبده ويعجب به نصير المذهب الطبيعي، الإنسان النظري الذي لا يمتلك غير حياة طبيعية كغاية له، ليس من ثم الإله والخالق *بالمعنى الذي للدين*. لا! وحده خالق الإنسان، خالق الإنسان كذلك الذي يميز به ذاته عن الطبيعة،

---

(1) هنا، على الأغلب، الإشارة إلى نص متى:«فَدنا إليهِ بعضُ الفرِّيسيِّين وقالوا له ليُحرجوه: أيَحِلُّ لأحَدٍ أن يُطلِّقَ امرأتَه لأيَّةِ عِلَّةٍ كانت؟ فأجاب: أما قرأتُم أنَّ الخالِقَ مُنذُ البَدءِ جَعلَهما ذَكَراً وأُنثى وقال: لِذَلِكَ يَترُكُ الرَّجُلُ أباهُ وأُمَّه ويَلزَمُ امرأتَه ويصيرُ الاثْنانِ جَسَداً واحداً. أفلا يكونانِ اثنَينِ بعدَ ذلكَ، بل جَسَدٌ واحد. فما جَمَعَه اللهُ فلا يُفرِّقنَّه الإنسان. فقالوا له: فلِماذا أمَرَ موسى أن تُعطى كِتابَ طَلاقٍ وأن تسرَّح؟ قالَ لهم: مِن أجْلِ قَساوَةِ قُلوبِكم رَخَّصَ لَكم موسى في طَلاقِ نِسائكم، ولَم يَكُنِ الأمرُ مُنذُ البَدءِ هكذا. أمَّا أنا فأقولُ لكم: مَن طَلَّقَ امرأتَه، إلاَّ لِفَحْشاء، وتَزوَّجَ غيرَها فقَد زَنى. فقالَ له التَّلاميذ: إذا كانَت حالَةُ الرَّجُلِ مَعَ المَرأةِ هكذا، فلا خَيرَ في الزَّواج. فقالَ لهم: هذا الكلامُ لا يَفهَمُه النَّاسُ كُلُّهم، بلِ الَّذينَ أُنعِمَ علَيهِم بذلك. فهُناكَ خِصْيانٌ وُلِدوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهِم على هذِه الحال، وهُناكَ خِصْيانٌ خَصاهُمُ النَّاس، وهُناك خِصْيانٌ خَصَوا أنفُسَهم مِن أجلِ مَلكوتِ السَّمَوات. فَمَنِ استَطاعَ أن يَفهَمَ فَليَفهَمْ!».
نشير هنا إلى أن أوريجانوس، أحجم البطريرك الاسكندري عن ترقيته درجة كهنوتية لسببين:
السبب الأول: انه خصى نفسه الأمر الذي أخفاه ريجانوس عن أسقفي فلسطين وأورشليم. [مترجم].

ويرتفع فوق الطبيعة، الخالق الذي يمتلك فيه الإنسان *الوعي بذاته*، الذي يجد فيه ممثلة الصفات تشكّل طبيعته بالتمايز عن الطبيعة الخارجية، *وتلك بحد ذاتها طريقة يتخيلها* [الصفات ـ مترجم] *فيها في الدين*، هو خالق كما هو غرض للدين.

يقول لوثر، «الماء، الذي يستخدم في التعميد ويُسكب فوق الطفل هو *أيضاً ماء ليس من الخالق* بل من *الرب المخلص*». الماء الطبيعي أتشارك به مع الحيوانات والنباتات، لكن ليس ماء التعميد؛ الأول يدمجني مع الكينونات الطبيعية الأخرى، الأخير يميزني عنها. لكن غرض الدين ليس الماء الطبيعي، بل ماء التعميد؛ ومن ثم ليس خالق أو مؤلف الماء الطبيعي، بل خالق ومؤلف ماء التعميد هو غرض الدين. إن خالق الماء الطبيعي هو كينونة طبيعية، ومن ثم غير دينية، أي، خارقة ـ للطبيعة. الماء هو كينونة مرئية، والذي لا تقودنا صفاته وآثاره من ثم إلى علّة *خارقة للطبيعة*؛ لكن ماء التعميد هو ليس غرضاً للعين *الجسدية*، إنه كينونة روحانية، غير مرئية، خارقة للحواس، أي، كينونة تتواجد وتعمل فقط من أجل الإيمان، في الفكر، في المخيلة ـ كينونة تحتاج نتيجة لذلك كعلة لها إلى كينونة روحانية تتواجد فقط في الإيمان وفي المخيلة. الماء الطبيعي ينظفني فقط من وساخاتي وأمراضي الجسدية، لكن ماء التعميد من تلك الأخلاقية؛ الأول يروي عطشي إلى هذه الحياة المؤقتة، الزائلة، لكن الأخير يشبع رغبتي بحياة أبدية؛ الأول لديه فقط آثار محدودة، معينة، متناهية، لكن الأخير نتائج لا متناهية، كلية القدرة، والتي تتجاوز طبيعة الماء، والتي تمثِل وتظهِر نتيجة لذلك طبيعة الكينونة الإلهية، التي هي غير مقيدة بحد الطبيعة، الجوهر غير المحدود لقدرة الإنسان على الاعتقاد والتخيل، غير

المقيد بأي حد للتجربة والعقل. لكن أليس خالق ماء التعميد هو الخالق للماء الطبيعي؟ ما هي العلاقة إذاً التي يقيمها الأول بالأخير؟ العلاقة ذاتها بالذات التي يقيمها ماء التعميد بالماء الطبيعي؛ الأول لا يستطيع أن يتواجد، إذا الأخير غير موجود؛ هذا الواحد هو الشرط، الوسيلة لذلك الواحد. وهكذا فإن خالق الطبيعة هو فقط *الشرط لخالق الإنسان*. كيف يمكن لمن لا يمسك بالماء في يده أن يربط به آثاراً فائقة للطبيعة؟ كيف يمكن لمن لا يتحكم بالزمني أن يعطي حياة أبدية؟ كيف يمكن لمن لا تطيعه عناصر الطبيعة، أن يسترد جسده المتحول إلى تراب؟ لكن من هو سيّد وحاكم الطبيعة ما لم يكن ذلك الذي امتلك القدرة والقوة على إنتاجها من العدم بإرادته المجردة؟ نتيجة لذلك فإن من يعلن أن الاتحاد بين الجوهر الخارق للطبيعة للعمادة والماء الطبيعي تناقض، لا معنى له، يمكنه أيضاً أن يعلن أن الاتحاد بين الجوهر الخارق للطبيعة للخالق مع الطبيعة هو ثمة تناقض؛ لأن الفارق بين آثار ماء التعميد والماء العام هو تماماً بالقدر الكبير أو القدر القليل للرابط بين الخالق الخارق ـ للطبيعة والطبيعة الطبيعية. الخالق يأتي من المصدر ذاته الذي تتدفق منه مياه التعميد العجائبية. في مياه التعميد نحن نرى فقط جوهر الخالق، الإله، في *توضيح ملموس*. كيف يمكنك أن ترفض إذاً معجزة التعميد والمعجزات الأخرى، إذا كنت تعترف بجوهر الخالق، أي، جوهر المعجزة؟ بكلمات أخرى، كيف يمكنك أن ترفض المعجزة *الصغيرة* إذا كنت تعترف بمعجزة الخلق *العظيمة*؟ لكن الأمر في عالم اللاهوت يشبه تماماً الأمر في عالم السياسة؛ اللصوص الصغار يُشنقون، اللصوص الكبار يعانون من الفرار.

الفقرة الخمسون: إن تلك العناية التي تظهر في النظام، منسجمة مع

هدف وقوانينية الطبيعة، ليست العناية التي للدين. الأخيرة تقوم على الحرية، الأولى تقوم على الضرورة؛ الأخيرة غير محددة وغير مشروطة، الأولى محددة تعتمد على ألف شرط مختلف؛ الأخيرة عناية خاصة وفردية، الأولى تمتد فقط إلى المجمل الكلي، النوع، في حين يترك الفرد لحظّه. يقول مناصر ربوبي لمذهب الطبيعة: «كثيرون (أو بالأحرى كل أولئك الذين تصورهم للّه فيه أكثر من أصل رياضياتي، متخيل للطبيعة) تخيلوا حفظ العالم وخاصة البشرية على أنه *مباشر وخاص*، كما لو أن اللّه يتحكم بأعمال كل الخلائق، ويقودهم دائماً وفق ما يشاء. لكن بعد الأخذ بعين الاعتبار القوانين الطبيعية، نحن غير قادرين على الاعتراف بمثل هذا التحكم والرقابة على أفعال البشر والخلائق الأخرى... ونحن نتعلّم من هذه العناية الضعيفة التي توليها الطبيعة بالبشر الفرديين.»[1] آلاف من البشر تتم التضحية بهم دون تردد أو توبة في وفرة الطبيعة... حتى فيما يخص الإنسان فنحن لدينا التجربة ذاتها. ليس نصف الجنس البشري يصلون إلى

---

(1) وهكذا، بشكل عام، ففي كل القياسات المنطقية من الطبيعة إلى الله، السالف، *الافتراض المسبق*، هو القياس المنطقي *البشري*؛ لا عجب من ثم أن نتيجتها هي *كينونة بشرية* أو *كينونة شبيهة بالإنسان*. حين يكون العالم آلة لا بد أن يكون هنالك مهندس بالضرورة. حين تكون الكينونات الطبيعية لا مبالية إحداهما بالأخرى مثل الكينونات البشرية التي يمكن أن تُستخدم أو توحد فقط بوساطة قوة أعلى من أجل هدف اعتباطي للدولة، كالحرب على سبيل المثال، هنالك يجب بطبيعة الحال أن يوجد أيضاً حاكم، محافظ، قاد عام للطبيعة ـ قبطان الغيوم ـ إذا كان لها أن لا تذوب في العدم. وهكذا فالإنسان أولاً يجعل الطبيعة بشكل غير واع عملاً بشرياً، أي، يجعل جوهره جوهرها الأساسي، لكن حيث أنه بعد ذلك أو في الوقت ذاته يتصور الفرق بين أعمال الطبيعة وأعمال الفن البشري، يظهر جوهره بالنسبة له كجوهر آخر، مماثل، شبيه. وكل الحجج على وجود الله تمتلك من ثم أهمية منطقية أو بالأحرى أنثروبولوجية، كنه أيضاً الأشكال المنطقية هي أشكال للطبيعة البشرية.

السنة الثانية من عمرهم، لكنهم يموتون دون أن يعرفوا تقريباً أنهم عاشوا يوماً. ونحن نتعلّم هذا الشيء بالذات أيضاً من المصائب والحوادث المؤسفة لكلّ البشر، الجيد كما السيء، التي لا يمكن أن تكون مصنوعة بشكل جيد كي تتوافق مع الحفظ أو التعاون الخاصين للّه».

لكن حكماً، عناية ليسا خاصين، لا يمكن أن يستجيبا لغرض العناية، جوهرها، فكرتها؛ لأنه على العناية أن تقضي على التصادفي، لكن ذلك تماماً ما يؤيد من قبل عناية *عامة* على نحو مجرد والتي هي نتيجة لذلك ليست أفضل من *اللاعناية* البتة. وهكذا، على سبيل المثال، فإنه «قانون النظام الإلهي في الطبيعة»، أي، عاقبة لعلل طبيعية، أنه وفقاً لعدد السنوات فإن موت الإنسان يحدث أيضاً في نسبة محددة؛ أنه على سبيل المثال، في السنة الأولى يموت طفل *واحد* من ثلاثة أو أربعة أطفال، في السنة الخامسة واحد من خمسة وعشرين، في السنة السابعة واحد من خمسين، في العاشرة واحد من مئة، لكن يظل الأمر تصادفياً، غير منظم من قبل هذا القانون، حيث يعتمد على علل تصادفية أخرى، أنه فقط هذا الطفل الواحد يموت، في حين يعيش أولئك الأربعة أو الخمسة الآخرون. وهكذا فالزواج هو «عرف للّه»، قانون للعناية الطبيعية، من أجل إكثار الجنس البشري، وبذلك فهو واجب بالنسبة لي. لكن سواء أكنت سأتزوج «*هذه الواحدة*» فقط، سواء أنها لم تكن تبعاً لخلل عضوي تصادفي غير مناسبة أو عقيم، فذلك لم أُخبر به. لكن فقط بسبب أن العناية الطبيعية، التي هي في الواقع ليست غير الطبيعة ذاتها، لا تأتي لمساعدتي حين أقدم على تطبيق القانون على حالة خاصة، فردية، بل تتركني وشأني في لحظة القرار الحاسمة، تحت ضغط الضرورة؛ أستأنف منها إلى محكمة أعلى، إلى عناية اللّه

الخارقة ـ للطبيعة التي تشع عينها علي تماماً حيث ينطفئ نور الطبيعة؛ التي يبدأ حكمها تماماً حيث يصل حكم العناية الطبيعية إلى نهاية. الآلهة تعرف وتخبرني، إنها تقرّر أية طبيعة تترك في ظلمة الجهل وتتركها للصدفة. إن المنطقة التي تدعى عمومياً، وكذلك فلسفياً، تصادفية، «إيجابية»، فردية، لا يجب التنبؤ بها ولا التفكّر فيها، هي منطقة الآلهة، منطقة العناية الدينية. والوحي والصلاة هما الوسائل الدينية التي يُجعل بها الإنسان التصادفي، الغامض، غير المؤكد، غرضاً لليقين، أو على الأقل الأمل.(1)

الفقرة الحادية والخمسون: يقول أبيقور، تتواجد الآلهة في أوقات راحة الكون. حسن جداً؛ إنها تتواجد فقط في الأماكن الخاوية، في الهاوية التي هي بين عالم المخيلة وعالم الواقع، بين القانون وتطبيقه، بين الفعل ونتيجته، بين الحاضر والمستقبل. الآلهة كينونات مُتخيلة، كينونات للمخيلة التي تدين بوجودها نتيجة لذلك، إذا ما تكلمنا بدقة، ليس إلى الحاضر بل إلى الماضي *والمستقبل*، وأولئك الذين *لم يعودوا يتواجدون*، الموتى، تلك الكينونات التي تعيش فقط في الذهن

(1) مع ذلك فالطبيعة «تهتم» بالقدر الضئيل ذاته بالنسبة للنوع أو الجنس. الأخير محفوظ لأنه ليس غير المجموع الكلّي للأفراد الذين هم من خلال الجماع الجنسي يتكاثرون ويتضاعفون. وفي حين يكون الأفراد المفردون معرضين لتأثيرات تصادفية، تدميرية، الآخرون ينجون منها. وهكذا فالتعددية محفوظة. لكن مع ذلك، أو بالأحرى من الأسباب ذاتها التي تؤدي بالفرد المفرد لأن يفنى، فحتى النوع يموت. وهكذا فقد اختفى الدرونته dronte، وهكذا فالغزال الإيرلندي العملاق، بل حتى اليوم فإن أنواعاً حيوانية عديدة تختفي نتيجة اضطهاد الإنسان أو الحضارة التي تمتد على نحو متزايد باستمرار من مناطق حيث كانت ما تزال موجودة ذات مرة أو حتى قبل زمن قصير بأعداد ضخمة، كما على سبيل المثال الفقمة، من بعض الأراضي الداخلية؛ ومع الزمن ستختفي بالكامل من على سطح الأرض.

والمخيلة، التي عبادتها عند بعض الأمم تشكّل الدين برمته، وعند معظمها [الأمم ـ مترجم] جزءاً أساسياً هاماً من الدين. لكن على نحو أقوى بكثير من الماضي، يتأثر العقل بالمستقبل؛ الأول يترك خلفه فقط التصوّر الهادئ للذاكرة، في حين أن الأخير يقف أمامنا بإرهاب الجحيم أو نعيم الجنة، إن الآلهة التي تقوم من القبور إنما هي من ثم مجرّد ظلال للآلهة؛ الآلهة الأحياء الحقيقيون، المتحكمون بالمطر وأشعة الشمس، البرق والرعد، الحياة والموت، السماء والجحيم، تدين بوجودها أيضاً إلى قوى *الرعب والأمل*، التي تتحكّم بالحياة والموت، والتي تنير ظلمة هاوية المستقبل بكينونات المخيلة. الحاضر نثري على نحو مفرط، جاهز الصنع، محدد، أبداً لا يُغيّر، نهائي، حصري؛ في الحاضر، تتزامن المخيلة مع الواقع؛ فيها نتيجة لذلك ليس ثمة مكان للآلهة؛ الحاضر إلحادي. لكن المستقبل هو إمبراطورية الشعر، إمبراطورية الممكن والحدث التصادفي غير المحدودين؛ يمكن للمستقبل أن يكون بحسب أمنياتي أو مخاوفي؛ إنه ليس تابعاً للقدر القاسي لقابلية التغيير؛ إنه يظل يرفرف بين الوجود واللاوجود، عالياً فوق الواقع والتلمس؛ إنه يظل ينتمي إلى عالم *آخر*، «*غير مرئي*»، والذي لا يطلق في الحركة من قبل قوانين الجاذبية، بل فقط من قبل الأعصاب الحسية. هذا العالم هو عالم الآلهة. عالمي هو الحاضر، لكن المستقبل ينتمي إلى الآلهة. أنا أكون الآن؛ هذه اللحظة الحاضرة، مع أنها ستكون الماضي مباشرة، لا يمكن أن تؤخذ مني أبداً من قبل الآلهة؛ الأشياء التي حدثت لا يمكن أن تُبطل حتى بقوة إلهية، كما قال القدماء بالفعل. لكن هل سأتواجد اللحظة *القادمة*؟ هل تعتمد اللحظة القادمة من حياتي على *إرادتي* أنا، أو إنها

تكون في أية *ضرورة* مرتبطة باللحظة الحاضرة؟ لا؛ إن عدداً لا حصر له من الحوادث العرضية؛ الأرض تحت قدمي، السقف فوق رأسي، بريق البرق، رصاصة، حجر، حتى حبة العنب التي تنسل إلى قصبتي الهواية بدل عبورها داخل المري، يمكن في أية لحظة أن تمزّق للأبد اللحظة القادمة عن الحاضرة. لكن الآلهة الخيرة تمنع هذا الخرق العنيف؛ إنها تملأ بأجسامها الخارجية، الحصينة، مسام الجسد البشري التي هي سهلة المنال لكلّ التأثيرات التدميرية الممكنة؛ إنها تربط اللحظة القادمة باللحظة التي هي ماضية؛ إنها توحد المستقبل مع الحاضر؛ إنها تكون، وتمتلك في استمرارية غير منقطعة، ما يكونه البشر ـ الآلهة *التي تنفذ منها السوائل* ـ ويمتلكونه، فقط في أوقات الراحة مع انقطاعات.

الفقرة الثانية والخمسون: الخيرية هي صفة جوهرية عند الآلهة؛ لكن كيف يمكن أن يكونوا خيرين حين لا يكونون *قديرين* وأحراراً من قوانين العناية الطبيعية، أي، من أغلال الضرورة الطبيعية، حين لا يظهرون في الأمثلة الفردية التي تقرر بين الموت والحياة، *كأسياد للطبيعة*، بل *كأصدقاء ومفيدين للبشر*، وحين لا يقومون نتيجة لذلك بأية معجزة؟ الآلهة، أو بالأحرى الطبيعة، وهبت الإنسان القدرات الجسدية والعقلية كي يكون قادراً على أن يعيل ذاته. لكن هل هذه الوسائل الطبيعية لأن يعيل ذاته *كافية* دائماً؟ ألم أصل إلى تلك الحالات مراراً وأضيع فيها دون أمل إذا لم توقف يد خارقة للطبيعة المسار العنيد للنظام الطبيعي؟ النظام الطبيعي خيّر، لكن هل هو خيّر *دائماً*؟ هذا المطر أو الجفاف الدائمان، مثلاً، منظمان بالكامل؛ لكن ألا يتوجب علي أنا أو أسرتي، أو حتى الأمة كلها أن نفنى بسبب ذلك، ما

لم تقدّم الآلهة عونها وتوقفه؟[1] المعجزات إذاً غير *قابلة للانفصال* عن الحكم والعناية الإلهيين؛ لا، بل إنها براهين الآلهة، إظهاراتها، وحيها الوحيدون، كقوى وكينونات متمايزة عن الطبيعة؛ فأن *تنكر* المعجزات يعني *أن تنكر الآلهة ذاتها*. بماذا يتميز الآلهة عن البشر؟ فقط بكونهم بلا حدود، فما يكونه الآخرون *بطريقة محدودة*، وعلى نحو خاص بكونهم دائماً ما يكونه الآخرون *لوقت معين* فحسب، للحظة.[2] البشر يعيشون ـ الوجود الحي هو ألوهية، صفة ضرورية وشرط أولي للإله ـ لكن واحسرتاه! ليس إلى الأبد؛ إنهم يموتون ـ لكن الآلهة خالدة تعيش دائماً؛ البشر هم أيضاً سعداء، لكن ليس دون انقطاع كما الآلهة؛ البشر هم أيضاً خيرون، لكن *ليس دائماً*؛ ووفقاً لأرسطو، البشر يتمتعون بسعادة التفكير الإلهية، لكن فعاليتهم الفكرية تقاطعها وظائف وأفعال أخرى. وهكذا فالبشر والآلهة يتملكون الصفات وقواعد الحياة ذاتها، فقط أن الأولين يمتلكونها دون محددات واستثناءات، الأخيرون بمحددات واستثناءات. وحيث أن الحياة القادمة ليست غير *الاستمرارية لهذه الحياة غير المنقطعة بالموت*، كذلك فالكينونة الإلهية

(1) قارن فيما يخص هذه المسألة تعابير سقراط في كتابات اكزنيفون Xenophon فيما يخص مهابط الوحي.

(2) المسيحيون يصلّون لإلههم من أجل المطر كما كان يفعل الإغريق لجوف Jove، ويعتقدون أنهم يتم الاستماع إليهم بتلك الصلوات. يقول لوثر في حوارات طاولته، «كان هنالك جفاف عظيم، حيث أنها لم تكن تمطر منذ زمن طويل، وبدأ الحب في الحقل بالجفاف، حين راح السيد م. ل. يصلي باستمرار على نحو متواصل وقال في نهاية المطاف: آه، يا رب، صلِّ بها يخص استرحامنا لأجل وعدك...أعرف أننا نصرخ إليك ونتنهد برغبة؛ لماذا لا تستمع إلينا؟ وحملت الليلة التالية بالذات مطراً مثمراً رائعاً للغاية».

ليست غير الكينونة البشرية *غير المنقطعة بالطبيعة* بشكل عام ـ طبيعة الإنسان *غير المنقطعة، غير المحدودة*. لكن كيف تتميز المعجزات عن آثار الطبيعة؟ تماماً كما تتميز الآلهة عن البشر. المعجزة تجعل أثراً أو نعتاً للطبيعة الذي هو في حالة بعينها ليس جيداً، جيداً أو غير مؤذ على الأقل؛ إنها تسبب أن لا أغوص وأغرق في الماء، إن لم تواجهني كارثة السقوط فيه؛ أن النار لا تحرقني؛ أن حجراً، يسقط على رأسي، لا يقتلني ـ باختصار، إنه يجعل ذلك الجوهر الذي هو الآن مفيد، ومن ثم مدمر، الآن محب للناس، ومن ثم كاره لهم، خيراً دائماً. الآلهة والمعجزات تدين بوجودها فقط لاستثناءات القاعدة. الإله هو الدمار للعيوب والضعف في الإنسان التي هي العلل بالذات للاستثناءات؛ المعجزة هي الدمار للعيوب والضعف في الطبيعة. الكينونات الطبيعة هي كينونات محددة ومن ثم مقيدة. إن حدها هذا في بعض حالات شاذة هو علة أذيتها للإنسان؛ لكن بالمعنى الديني فهي غير ضرورية، بل اعتباطية، يصنعها اللّه ومن ثم سيُقْضى عليها حين تتطلب الضرورة، أي، رفاه الإنسان ذلك. ـ إن إنكار المعجزات بذريعة أنها غير لائقة بكرامة اللّه وحكمته اللذين بفضلهما ثبّت وحدد كلّ شيء منذ البداية بالطريقة الأفضل، يعني أن نضحي بالإنسان للطبيعة، الدين للعقل، يعني أن نبشّر بالإلحاد باسم اللّه. إن إلهاً والذي هو يحقّق فقط تلك الصلوات والأمنيات للبشر كما يمكن أن تتحقق أيضاً *دونه*، فتحقيقها يكون *ضمن حدود وشروط العلل الطبيعية*، الذي يساعد من ثم فقط طالما الفن والطبيعة يساعدان، لكنه يتوقف عن المساعدة حالما يصل

الدواء materia medica [1] إلى نهاية ـ إله كهذا ليس غير الضرورة المشخصة للطبيعة مختفية خلف اسم الله.

الفقرة الثالثة والخمسون: الاعتقاد *بالله* هو إما الاعتقاد بالطبيعة (الكينونة الموضوعية) ككينونة بشرية (ذاتية)، أو الاعتقاد بالجوهر البشري كجوهر للطبيعة. الأول هو الديانة الطبيعية، الاعتقاد بتعددية الآلهة،[2] هذه الديانة الوحيدة الروحانية أو البشرية، الإيمان بوحدانية الإله. يضحي نصير مذهب تعددية الآلهة بنفسه لأجل الطبيعة، إنه يعطي لعينه وقلبه قدرة وحكماً على الطبيعة؛ يجعل نصير مذهب تعددية الآلهة الكينونة البشرية متكلة على الطبيعة، أما نصير مذهب وحدانية الإله فيجعل الطبيعة متكلة على الكينونة البشرية؛ يقول الأول: *إذا لم توجد الطبيعة، فأنا لن أتواجد*؛ لكن الأخير يقول: *لو لم أتواجد أنا، لن يتواجد العالم، الطبيعة*. إن المبدأ الأول للدين هو: *لست شيئاً مقارنة بالطبيعة، كل شيء بالمقارنة معي إله*؛ إن كلّ شيء يلهمني شعور الاتكالية، كل شيء يمكن أن يأتي لي،

---

(1) الحقيقة أن حذف الحدود له عواقب الزيادة والتبدّل؛ لكنه لا يقضي على الهوية الأساسية. [*Materia medica* (بالإنكليزية: المادة/ الجوهر الطبي) هو مصطلح لاتيني من تاريخ الصيدلة يطلق على جسم المعارف المجمعة حول الخصائص العلاجية لأي مادة مستخدمة للعلاج (أي الأدوية). المصطلح مشتق من عنوان لعمل للطبيب الإغريقي بيدانيوس ديسكوريدس Pedanius Dioscorides من القرن الأول الميلادي، De materia medica، «حول المواد الطبية» (باليونانية، *Peri hylēs iatrikēs*، εpὶ ΰλης ίατρικῆς). تم استخدام مصطلح *materia medica* من فترة الإمبراطورية الرومانية حتى القرن العشرين، ولكن تم استبداله الآن بشكل عام في سياقات التعليم الطبي بمصطلح فارماكولوجيا. حافظ المصطلح على استمراريته في عنوان لعمود من المجلة الطبية البريطانية، «*Materia Non Medica*». ـ مترجم].

(2) إن تعريف مبدأ الاعتقاد بتعددية الآلهة عموماً ودون المزيد من التفسير كديانة طبيعية، يصدق فقط نسبياً ومن منظور مقارن.

وإن فقط على نحو عرضي، بالحظ والمصيبة، الرفاهية والتدمير، (لكن الإنسان لا يميّز أصلاً بين العلة والحافز التصادفي)؛ وبذلك فكل شيء حافز للدين. الدين من منظور مثل هذا الشعور غير النقدي بالاتكالية هو فتشية كما تُدعى، أساس مذهب الاعتقاد بتعددية الآلهة. لكن خاتمة الدين هي: كل شيء هو لا شيء بالمقارنة معي ـ كل عظمة النجوم، الآلهة الفائقة لمذهب الاعتقاد بتعددية الآلهة تختفي أمام عظمة النفس البشرية؛ كل قوة لعالم أمام قوة القلب البشري؛ كل ضرورة للطبيعة الميتة غير الواعية، أمام ضرورة الكينونة البشرية، الواعية؛ *لأن كل شيء ليس غير وسيلة بالنسبة لي*. لكن الطبيعة لم تكن لتتواجد لأجلي، إذا وجدت *بذاتها*، إذا لم تكن من اللّه. لو أنها كانت بذاتها، ومن ثم كان لديها علة وجودها في ذاتها، لكانت ستمتلك لهذا السبب بالذات علّة *مستقلة* أيضاً، وجوداً وجوهراً أصليين *دون أية علاقة بذاتها*، ومستقلة عني. إن فحوى الطبيعة، التي تظهر وفقاً لها بأنها *عدم لأجل ذاتها*، لكن فقط *وسيلة لأجل الإنسان*، إنما يجب تتبع أثرها نتيجة لذلك في الخليقة ليس إلا؛ لكن هذه الفحوى إنما يتم إظهارها قبل كل شيء في تلك الأمثلة حيث يصل الإنسان ـ كما في محنة، في خطر الموت ـ *إلى تصادم* مع الطبيعة، التي تضحي مع ذلك لرفاهية الإنسان ـ في المعجزات. وهكذا فإن *مقدمة المعجزة هي الخلق*؛ *المعجزة هي الخاتمة*، *النتيجة*، *حقيقة الخلق*. للخلق بالمعجزة العلاقة ذاتها التي للنوع بالفرد المفرد؛ المعجزة هي فعل الخلق في حالة *خاصة*، *فردية*. أو، الخلق هو *النظرية*؛ جانبها *العملي وتطبيقها* هو *المعجزة*. اللّه هو *العلة*، الإنسان هو *غاية* العالم، أي، اللّه هو *العلة الأولى نظرياً*، لكن الإنسان هو *الكينونة الأولى عملياً*. الطبيعة ليست شيئاً بالنسبة للّه ـ ليست سوى ألعوبة

بيد قدرته ـ لكن فقط من أجل أنه في ضرورة، أو بالأحرى عموماً، فإنها لا تكون ولا تستطيع أن تفعل شيئاً ضد الإنسان. في الخالق يسقط الإنسان حدود جوهره، «نفسه»، في المعجزة حدود وجوده، جسده؛ هنالك يجعل جوهره غير المرئي، المفكّر والمتأمل، هنا جوهره الفردي، العملي، المرئي، جوهر العالم؛ ومن ثم يشرّع المعجزة، هنا فقط *ينفّذها*. المعجزة تنجز غاية الدين بطريقة حسية، شعبية ـ سيادة الإنسان على الطبيعة، *ألوهية* الإنسان تصبح حقيقة ملموسة. اللّه يصنع المعجزات، لكن بناء على صلاة الإنسان ومع أنه ليس بناء على صلاة خاصة، يظل في شعور الإنسان، بالتوافق مع أمانيه الأعمق والأكثر سرية. ضحكت سارة[1] حين وعدها اللّه في عمرها المتقدّم بطفل صغير، مع ذلك فحتى آنئذٍ كان أحفادها ما يزالون أعلى أفكارها وأمانيها. لذلك فالصانع *السري* للعجائب هو الإنسان، لكن مع تقدّم الزمن ـ الزمن يكشف كلّ الأسرار ـ سوف يصبح ويجب أن يصبح الصانع *الظاهر*، المرئي للعجائب. في البداية *يتلقى* الإنسان العجائب، في النهاية *يصنع* العجائب بذاته؛ في البداية اللّه فقط في القلب، في العقل، في الفكر، في النهاية، اللّه في الجسد. لكن الفكر محتشم، الحسيّة بلا خجل؛ الفكر صامت ومتحفظ، الحسيّة تتكلم بصراحة وبشكل مباشر؛ تفوهاتها نتيجة لذلك معرضة لأن تكون محط سخرية حين تتعارض مع العقل، لأن

---

(1) أنظر نص التكوين: وَافتقَدَ الرَّبُّ سارةَ كما قال، وصَنَعَ الرَّبُّ إلى سارةَ كما قال. فحَمَلَت سارةُ وولَدَت لإبراهيمَ آبنًا في شَيخوخَتِهِ في الوَقتِ الَّذي وَعَدَ اللهُ به. فسمَّى إبراهيمُ آبنَه المَولودَ له، الَّذي وَلَدَته له سارة، إسحق. وخَتَنَ إبراهيمُ إسحقَ آبنَه، وهو آبنُ ثمانيةِ أيّام، بِحَسَبِ ما أَمَرَه اللهُ به. وكانَ إبراهيمُ ابنَ مِئَةِ سَنَةٍ حينَ وُلِدَ له إسحقُ ابنُه. وقالَت سارة: جَعَلَ اللهُ لي ما يُضحِك، فكُلُّ من سَمِعَ بذلك يَضحَكُ بِشأني. وقالت: من كانَ يَقولُ لإبراهيم: إنَّ سارةَ سَتُرضِعُ البَنين! فقد وَلَدتُ ابنًا لِشَيخوخَتِه.[الإصحاح 21: 1 وما بعد. مترجم].

التعارض هنا مرئي، لا يمكن إنكاره. وهذا هو السبب الذي يفسّر لماذا يخجل العقلانيون الحديثون من الاعتقاد بالإله في الجسد، أي، المعجزة الحسية، المرئية، في حين أنهم لا يخجلون من الاعتقاد بالإله غير الحسي، أي، المعجزة غير الحسية، المخفية. مع ذلك سيأتي الوقت حين سيتم تحقيق نبوءة ليشتنبرغ Lichtenberg،[1] والاعتقاد بالله على نحو عام، وهكذا فإن الاعتقاد بإله عقلاني سيعتبر أيضاً على أنه خرافة تماماً مثلما أن الإله المسيحي في الجسد يُعتبر خرافة، وحين نتيجة لذلك فإن نور الكنيسة حول الاعتقاد البسيط وبدل شفق الاعتقاد العقلاني، سينير النور الصافي للطبيعة والعقل البشرية ويدفئها.

الفقرة الرابعة والخمسون: إن من لا يمتلك لأجل إلهه مادة أخرى غير الذي تقدمه له العلوم الطبيعية، الفلسفة، أو الملاحظة الطبيعية عموماً، الذي هو نتيجة لذلك يبني فكرة إلهه من مواد طبيعية ويعتبر أنه *ليس غير علة أو مبدأ* قوانين علم الفلك، الفلسفة الطبيعية، الجيولوجيا، علم المعادن، الفيسولوجيا، علم الحيوان، والأنثروبولوجيا، يجب أن يكون نزيهاً بما يكفي لأن يمسك أيضاً عن استخدام *الاسم* إله، لأن *مبدأ*

(1) في أواخر القرن الثامن عشر، حلم غورغ ليشتنبرغ، أستاذ الرياضيات وعلم الفلك في جامعة غوتنغن، ألمانيا، بحلم معين. وعلى الرغم من أن اسمه ليس مألوفًا اليوم، إلا أن ليشتنبرغ كان عالمًا بارزًا، محترمًا كمفكر إنساني ومستقل، أعجب به ونقل عنه كل من كانط وغوته وكيركغارد وفيتغنشتاين وفرويد. تجمع كتاباته بين الحس الديني والشغف بالعلم التجريبي، وخاصة الفيزياء التجريبية. ومدرج في عمل يحمل عنوان *قارئ ليشتنبرغ* (منارة برس 1959) من قبل العلماء الذين يترجمون أرشيفه في غوتنغن، الحلم هو حلم غير مؤرخ يبدو أنه يميز الطريقة التي وصل بها العلم الغربي إلى معالجة العالم المادي. لكن الحلم مذهل من حيث صلته بحالة كوكبنا اليوم.[مترجم].

طبيعياً هو دائماً جوهر *طبيعي وليس ما يشكّل فكرة الإله.*[1] بالقدر القليل ذاته فإن الكنيسة التي تم تحويلها إلى متحف للتحف الملفتة للنظر، ومع ذلك فهي تكون ويمكن أن تُدعى بيت اللّه، يمكن من ثم أن يكون اللّه إلهاً بالفعل، الذي طبيعته وجهوده تُظهر فقط في الأعمال الفلكية، الجيولوجية، الأنثروبولوجية؛ اللّه *كلمة دينية*، *غرض وكينونة دينيان*، ليس *كينونة مادية*، فلكية، أو بشكل عام *كونية*. يقول لوثر في حوارات طاولته، «*الإله والعبادة نسبيان* ***Deus et cultus sunt relativa***»، الإله والعبادة يتطابقان أحدهما مع الآخر، لا يمكن لأحدهما أن يكون دون الآخر، لأن *الإله يجب أن يكون دائماً إله إنسان أو أمة* وهو دائماً في *فئة العلاقات* ***praedicamento relationes***، فالكينونتان على حدّ سواء في علاقة تبادلية إحداهما بالأخرى. سيمتلك اللّه بعض الذين يحبونه ويعبدونه؛ لأنه أن تمتلك إلهاً وأن تعبده إنما يتطابقان الواحد مع الآخر، *يكونان نسبيين* ***sunt relativa***، كما الرجل وزوجته في الزواج - لا أحد يمكنه أن يكون دون الآخر». نتيجة لذلك فاللّه يفترض مسبقاً البشر الذين يحبونه ويعبدونه؛ اللّه هو كينونة لا تعتمد فكرته أو مفهومه على الطبيعة بل على الإنسان، وذلك على الإنسان المتدين؛

(1) الاعتباطية في استخدام الكلمات إنما هي غير مقيدة. لكن مع ذلك ما من كلمات تستخدم بشكل اعتباطي، لا تؤخذ بمعان متناقضة مثل الكلمات *الله* و*دين*. من أين هذه الاعتباطية والتشوش؟ لأن الناس بدافع إجلالهم بدافع خوفهم من الآراء المتناقضة التي تم تقديسها عبر الزمن، يحتفظون بالأسماء القديمة (لأنه وحده *الاسم*، *المظهر*، *يتحكّم بالعالم*، *حتى عالم المعتقدين بالله*)، مع أنهم يربطون بهم أفكاراً مختلفة بالكامل التي تم اكتسابها فقط في مجرى الزمن. هكذا كان الأمر فيما يخص الآلهة الإغريقية التي تلقت في مسار الزمن أكثر المعاني تناقضية؛ هكذا فيما يخص الإله المسيحي، الإلحاد الذي يدعو نفسه ربوبية هو الدين، العدائية للمسيحية التي تدعو ذاتها مسيحية هي المسيحية الحقيقية ليومنا الحالي. - ***mundus vult decipe*** [*العالم يريد أن يُخدع* - مترجم].

غرض للعبادة ليس دون كينونة عابدة؛ أي، اللّه هو غرض يتزامن وجوده مع وجود الدين، والذي هو نتيجة لذلك لا يتواجد *بمعزل عن الدين، مختلفاً ومستقلاً عنه*، لكن الذي فيه يُحتوى *موضوعياً* ليس أكثر مما يحتويه الدين *ذاتياً*.[1] الصوت هو *الجوهر الموضوعي*، *إله* الأذن؛ النور هو *الجوهر الموضوعي*، *إله* العين؛ الصوت يتواجد فقط لأجل الأذن، النور فقط لأجل العين؛ في الأذن نمتلك ما نمتلكه في الصوت: أجسام اهتزازية، متموجة، أغشية متمددة، مواد جيلاتينية؛ لكن العين تمتلك أعضاء النور. أن تجعل الإله غرضاً لفلسفة طبيعية، علم فلك أو علم حيوان، إنما هو من ثم الشيء ذاته تماماً أن تجعل الصوت غرضاً للعين. وكما تتواجد النغمة فقط في الأذن ولأجل الأذن، كذلك فإن الإله يتواجد فقط في الدين ولأجله، *فقط في الإيمان* ولأجله. وحيث أن الصوت أو النغمة كغرضين للسمع إنما يعبران عن طبيعة الأذن فحسب، كذلك فإن الإله كغرض والذي هو فقط غرض للدين والإيمان، يعبّر عن طبيعة الدين والإيمان. لكن ما الذي يجعل من غرض ما غرضاً *دينياً*؟ كما سبق ورأينا، وحدها مخيلة الإنسان وعقله. سواء أكنت تعبد يهوه أم أبيس، الرعد أم المسيح، ظلالك، تشبه زنجياً على ساحل غينيا، أو نفسك تشبه فارسياً من الأزمنة الغابرة، الـ ***flatus ventris*** [2] أو عبقريتك ـ باختصار، سواء أكنت تعبد كينونة حسية أم روحانية،

(1) إن كينونة نتيجة لذلك والتي هي مجرّد مبدأ فلسفي، ومن ثم مجرّد غرض للفلسفة، ليست للدين، للعباد، للصلاة، بل للقلب؛ كينونة لا تحقق أية أمنية، ولا تسمع أية صلاة، هي مجرد الإله بالاسم، لكنها ليست إلهاً في الواقع.

(2) [*Flatus*، الكلمة الرومانية، هي اسم مذكر ويعني النفخ أو الريح، *flatus emittere* تعني إخراج الرياح أو الضراط (التي تظهر عند سوتونيوس Suetonius كمرادف لـ *crepitus ventris*) *Crepitus ventris* تعني على نحو غير محدد قرقعة، أنين، أو ضجيج البطن ـ مترجم..]

الأمر سيان؛ يكون شيء غرضاً للدين فقط *بقدر ما* يكون غرضاً للمخيلة والشعور، لأنه فقط لأن غرض الدين، مثلما يكون غرضه، لا يتواجد في الواقع، لكنه بالأحرى يتناقض مع الأخير، لهذا السبب بالذات هو غرض للإيمان فحسب. وهكذا على سبيل المثال فإن خلود الإنسان، أو الإنسان ككينونة خالدة هو غرض الدين، لكن لهذا السبب بالذات فقط هو غرض للإيمان، لأن الواقع يظهر العكس تماماً، فناء الإنسان. أن تعتقد، يعني أن *تتخيل* أن شيئاً ما يتواجد والذي هو لا يتواجد؛ على سبيل المثال، أن تتخيل أن صورة بعينها هي كينونة حية، أن هذا الخبز جسد، الخمر دم، أي، شيء لا يكون.[1] نتيجة لذلك الأمر ينم عن أعظم جهل بالدين حين تأمل أن تجد الإله بمنظار في سماء علم الفلك، أو بالعدسة المكبرة في حديقة نباتية، أو بالمطرقة المعدنية في مناجم الجيولوجيا، أو بسكين ومنظار التشريح في أمعاء الحيوانات والبشر ـ أنت تجده فقط في إيمان الإنسان، مخيلته، وقلبه؛ لأن الإله ذاته ليس غير مخيلة الإنسان وقلبه.

الفقرة الخامسة والخمسون: «كما يكون قلبك، كذلك يكون إلهك». *كما تكون أماني البشر، كذلك تكون آلهتهم*. لقد كان للإغريق *آلهة محددة* ـ ذلك يعني: كانت لديهم *أمنيات محددة*. لم يكن الإغريق يرغبون بأن يعيشوا إلى الأبد، لقد كانوا يرغبون فقط أن لا يكبروا في العمر ويموتوا، فهم لم يرغبوا أن لا يموتوا بالمطلق، هم رغبوا فقط أن لا يموتوا الآن

(1) الإشارة هنا على الأرجح إلى نص لوقا، 22: 17 وما بعد: «ثُمَّ تَنَاوَلَ [المسيح] كَأْساً وَشَكَرَ وَقَالَ: خُذُوا هَذِهِ وَاقْتَسِمُوهَا بَيْنَكُمْ، لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ حَتَّى يَأْتِيَ مَلَكُوتُ الله. وَأَخَذَ خُبْزاً وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: هَذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هَذَا لِذِكري. وَكَذَلِكَ الْكَأْسَ أَيْضاً بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً: هَذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ». مترجم.

ـ الأمور المزعجة تأتي دائماً على نحو آني بالنسبة للإنسان ـ فقط ليس في زهرة أعمارهم، فقط ليس بموت عنيف، مؤلم؛[1] إنهم لم يرغبوا بأن يخلصوا في السماء، فقط سعداء، فقط أن يعيشوا دون مصاعب وألم؛ إنهم لم يتنهدوا كما يفعل المسيحيون، لأنهم كانوا خاضعين لضرورة الطبيعة، لرغبات الغريزة الجنسية، النوم، الطعام والشراب؛ لقد ظلوا خاضعين في رغباتهم لحدود الطبيعة البشرية؛ لم يكونوا بعد خالقين من العدم، لم يصنعوا بعد الخمر من الماء، لم ينقّوا بعد ماء الطبيعة ويقطروه ويحولوه بطريقة عضوية إلى دم الآلهة؛ لقد استمدوا محتويات الحياة الإلهية والمباركة ليس من المخيلة المجردة، بل من مواد من العالم الواقعي؛ لقد بنوا سماء الآلهة على أساس من هذه الأرض. لم يجعل الإغريق من الكينونة الإلهية، أي، الممكنة، الكينونة الأصلية ونهاية الكينونة الحقيقية، بل جعلوا من الكينونة الحقيقية مقياس الكينونة الممكنة. وحتى حين صقلوا وروحنوا آلهتهم عن طريق الفلسفة، فقد أُسّست أمنياتهم على أرضية من الواقع والطبيعة البشرية. الآلهة هي رغبات واقعية؛ لكن الرغبة

---

(1) في حين أنه نتيجة لذلك في جنة الخيال المسيحي لم يكن بإمكان الإنسان أن يموت كما أنه لن يموت إن لم يخطئ، عند الإغريق الإنسان يموت حتى لو كان في العمر السعيد لكرونوس Kronos، لكنه موت سهل كما لو أنه يدخل في نوم. في هذه الفكرة تتحقّق الأمنية الطبيعية للإنسان. الإنسان لا يرغب بحياة خالدة؛ إنه يرغب فقط بعمر طويل حافل بصحة عقلية وجسدية وموت بلا ألم يتوافق مع الطبيعة. إن ترك الاعتقاد بالخلود يتطلب شيئاً ليس أقل من استسلام رواقي غير إنساني، فهو لا يتطلب غير الاقتناع بأن مقولات الإيمان المسيحي إنما قامت أمنيات خارقة للطبيعة، خيالية فحسب، والعودة إلى طبيعة الإنسان البسيطة الحقيقي.
[الرواقي يبدو غير مبال أو غير متأثر بالمتعة أو الألم؛ عديم العاطفة: «استسلام رواقي في مواجهة الجوع» ـ مترجم.]

العليا، النعيم الأعلى للفيلسوف، للمفكّر بما هو، هو أن تفكّر دونما إزعاج. إنّ آلهة الفيلسوف الإغريقي ـ على الأقل آلهة الفيلسوف الإغريقي بلا منازع، آلهة جوف Jove الفلسفي، آلهة أرسطو ـ هم نتيجة لذلك مفكّرون غير منزعجين؛ فسعادتهم، ألوهيتهم، تتكون من فعالية لا تعرف انقطاعاً للتفكير. لكن هذه الفعالية، هذه السعادة في ذاتها هي سعادة، حقيقية ضمن هذا العالم، ضمن الطبيعة البشرية ـ مع أنها هنا محدودة بالانقطاعات ـ سعادة محددة، خاصة، ونتيجة لذلك في مفهوم المسيحيين، سعادة مقيدة، وفقيرة والتي هي نقيض جوهر السعادة الحقيقية؛ لأن المسيحيين ليس لديهم إله محدود بل إله غير محدود، يتجاوز كل ضرورة طبيعية، خارق للبشري، خارق للعالم، متسامٍ؛ أي، أن لديهم *أمنيات غير محدودة، متسامية، والتي تتجاوز العالم، تتجاوز الطبيعة، تتجاوز الإنسان ـ أي، أمنيات خيالية بالمطلق.* يرغب المسيحيون في أن يكونوا *أعظم، أسعد على نحو غير محدود من آلهة* الأولمب؛ إن أمنيتهم سماء *يتم القضاء فيها على كل حدود وكل ضرورات الطبيعة وتتحقق فيها كل الرغبات*؛[1] سماء لا توجد فيها *رغبات، لا معاناة، لا جروح، لا كفاح، لا شغف، لا عقبات، لا تعاقب للنهار والليل، لا نور ولا ظل، لا متعة ولا ألم*، كما في سماء الإغريق. باختصار فإن غرض اعتقادهم لم يعد إلهاً محدداً، مقيداً، إله

(1) يقول لوثر، على سبيل المثال: «لكن حيث يكون الله (أي، في السماء)، لا بد أن يكون هنالك أيضاً كل الأشياء الجيدة التي حتى يمكننا أن نرغب بها». وهكذا ففي القرآن، وفقاً لترجمة سافاري، يُقال عن ساكني الجنة: «*tous leurs desirs seront combles*» فقط رغباتهم هي من نوع مختلف.
ملاحظة للمترجم: في سورة يس، 57، يطالعنا النص التالي: « لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ». وفي تفسير الطبري للآية، يقول: «يقول: ولهم فيها ما يتمنون. وذُكر عن العرب أنها تقول: دع عليّ ما شئت أي: تمنّ عليّ ما شئت».

له الاسم المعين جوف Jove، بلوتو Pluto، أو فولكان Vulcan، بل إله دونما *تسمية*، لأن غرض أمنياتهم ليس سعادة *مسماة*، *متناهية*، *أرضية*، متعة مقررة، مثل متعة الحب، أو متعة الموسيقى الجميلة، أو متعة الحرية الأخلاقية، أو متعة التفكير، بل متعة تشمل كل المتع، مع ذلك فهي لهذا السبب بالذات متعة متسامية، تتجاوز كل فكرة وفكر، متعة سعادة غير *متناهية*، غير محدودة، *لا يمكن التعبير عنها بالكلام*، *لا يمكن وصفها*. السعادة والألوهة هما الشيء ذاته. السعادة هي غرض الاعتقاد، المخيلة، وكغرض نظري عموماً، هي الإله، الإله كغرض للقلب، للإرادة،[1] للأمنية

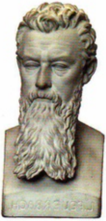
(1) مع ذلك فالإرادة، خاصة بالمعنى الذي عند الأخلاقيين، لا تشكّل جوهراً نوعياً للدين، لأنه ما أستطيع الحصول عليه بالإرادة، لأجل ذلك لا أحتاج آلهة. أن تصنع قيماً أخلاقية من العلة الأساسية للدين إنما يعني أن تحتفظ باسم الدين، لكن أن تسقط جوهره. يمكن للمرء أن يكون أخلاقياً دون الله، لكن لا يمكن أن تكون سعيداً ـ بالمعنى الخارق للطبيعة، المسيحي للكلمة ـ دون الله؛ لأن السعادة بهذا المعنى إنما تقع خلف حدود وقوة الطبيعة والبشر، لذلك فهي تفترض مسبقاً لأجل تحقيقها كينونة خارقة للطبيعة، والتي تكون ويمكنها أن تعمل، ما هو مستحيل على الطبيعة والجنس البشري. لذلك فحين صنع كانط قيماً أخلاقية من جوهر الدين، فقد كان على الأقل في العلاقة ذاتها أو على الأقل مشابهة لها بالديانة المسيحية مثلما كان أرسطو مع الديانة الإغريقية، حين قدّم الأخير نظرية جوهر الآلهة. صعب للغاية أن الإله الذي هو مجرّد كينونة تأملية، ليس غير عقل، أن يظل *إلهاً*، كذلك من الصعب على كينونة أخلاقية مجردة أو «قانون أخلاق مشخص» أن تظل إلهاً. والحقيقة أن جوف Jove هو بالفعل فيلسوف أيضاً، حين ينظر على نحو مشابه من أعلى جبل الأولمب على صراعات الآلهة، لكنه يظل هنالك أكثر على نحو لا متناه؛ فالقيم الأخلاقية هي فقط شرط للسعادة. الفكرة الحقيقية التي هي صميم السعادة المسيحية، خاصة بالتضاد مع الوثنية الفلسفية، هي مع ذلك ليست غير تلك السعادة التي يمكن تأسيسها على قاعدة الامتنان للطبيعة البشرية *ككل* ليس إلا، وهو السبب الذي تعترف المسيحية لأجله بالجسد، باللحم، إلى حد المشاركة في الألوهة، أو ما هو الشيء ذاته، في متعة السعادة. لكن تطوير هذه الفكرة لا يخص هنا، إنه يخص جوهر *المسيحية*.

كغرض عملي عموماً، هو السعادة. أو بالأحرى، الإله هو فكرة الحقيقة والواقع التي هي السعادة فحسب. وبقدر ما تمضي الرغبة بالسعادة، كذلك تمضي فكرة الإله، ليس أبعد. ومن لم يعد لديه أية أمنيات خارقة للطبيعة، لن يعود لديه أية كينونات خارقة للطبيعة أيضاً.

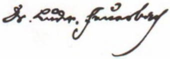
دار الرافدين
للطباعة والنشر والتوزيع

الدار
الليبرالية
Liberal Library

Das Wesen der Religion



هذا الكتاب هو أساس لثلاثين محاضرة لاحقة ألقاها لودفيج فيورباخ في عام 1848، جمعت في كتاب بعنوان محاضرات حول جوهر الدين أحد أكثر الفلاسفة الإنسانيين الألمان تأثيراً، وفي جوهر الدين، طبق فيورباخ تحليله الموضح في جوهر المسيحية (1841) على الدين ككل، وكان الدافع الرئيس لحجة فيورباخ تتلخص بشكل مناسب في العنوان الفرعي الأصلي لهذا العمل: «الله صورة الإنسان، اعتماد الإنسان على الطبيعة هو المصدر الأخير والوحيد للدين».



دار الرافدين

Prometheus Books

ISBN 978-9922-634-71-5

SCAN ME

الدار الليبرالية

Liberal Library